الباب الرابع

مسيرة حياتى
مذكرات محمد يوسف الجندى
الجزء الأول

obeikan.com

obeikan.com

(١)

محمد يوسف الجندى واحد من أبرز رموز اليسار المصرى، ظل طيلة حياته على ولاء لليسار منذ ضحى بثروته وباسم عائلته ذى الرنين الوفدى الكبير، وآثر أن يكون جنديا من جنود اليسار، وقد نشط وسجن وهرب وسافر وعاد وظل على مبادئه، وقد أسس دار نشر تولت نشر عدد من الأدبيات اليسارية المهمة، وكان من الطبيعى أن تنشر داره مذكراته، وقد آثر أن ينشرها فى كتابين خصص الأول لما قبل عام ١٩٦٤ وخصص الثانى لما بعد هذا، وهكذا جعل الفاصل بين الكتابين متمثلا فى خروجه من سجون اليسار وذلك على خلاف رفعت السعيد الذى جعل الفاصل هو نهاية عهد عبد الناصر.

كتب محمد يوسف الجندى فى مقدمة الجزء الأول من مذكراته ما يعبر به عن مبادئه:

«وهذه الحياة التى أقدم مسيرتها، والتى عشتها بشكل كامل، كان يوجهها إيمان وانتماء لأفكار وأهداف لم أحد عنها، رغم أنها فى الصغر أخذت شكل الحماس والاندفاع، ومع تقدمى فى السن كانت تزداد نضوجا فى معترك التجارب، وفى خضم الحياة العملية».

«ورغم أن أفكارى قد تطورت عن شكلها وطريقة التعبير عنها فى مقتبل شبابى، (فإنها) ظلت فى مضمونها لم تتغير، من حيث الإيمان بالعدالة الاجتماعية، والانحياز للجماهير الكادحة المنتجة، ومازلت حتى الآن أقدس العمل المنتج، وأرفض وأعارض الظلم الاجتماعى، ومازلت أؤمن بالعمل لصالح غالبية الناس، وإن تعارضت مع المصالح الأنانية للأقلية المترفة، وأرفض الحياة على حساب الغير باستغلال عملهم،

وتدمير حياتهم، وأقدس الحرية الفردية التى لا تتعارض مع الحرية الاجتماعية، ولا تقوم على حسابها، ولا أفرق بين البشر، بين رجل وامرأة، وأبيض وأسود وأصفر، بين إفريقى وآسيوى وأوروبى وأمريكى، وإن كنت أنتمى إلى العالم الملون».

(٢)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن مقدمات انتمائه إلى الحركة الشيوعية، وإلى منظمة «اسكرا» على وجه التحديد، ومع أنه يروى أن شهدى عطية كان هو الذى ضمه لاسكرا، فإنه لا يذكر الأسباب التى دفعته إلى قبول الانتماء إلى اسكرا دون غيرها من المنظمات الشيوعية الأخرى، ومع هذا فإنه يتحدث عنها فى إطار غيرها، وكأنما كان الأمر أمر داعية ومستجيب للداعية فحسب، أو أمر مجند ومستجيب للتجنيد فحسب، وهو يقدم لهذا الحديث عن الانتماء للشيوعية تقديما سريعا ذاكرا أنه فعل ذلك لأنه لم يكن ليقبل بالحلول الوسط التى كان غيرها يتبناها، وهو يتخذ جمال العطيفى نموذجا لهؤلاء، كما أنه لم يكن بقادر على أن يتقبل رؤية محمد عصفور الدالة على نمط من أنماط تفكير الطبقية، وهو بعد هذا يقدم ملخصا لبانوراما الحركات الشيوعية التى وجدت فى الفترة التى انضم هو فيها لإحداها:

«... ومع هذه النشأة كان طبيعيا أن أشعر بحماس وانفعال شديد عندما طلبنى شهدى عطية الشافعى بعد إحدى الأمسيات فى دار الأبحاث العلمية، وحدثنى عن الانضمام إلى منظمة الشرارة «اسكرا»، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥، وكنت فى التاسعة عشرة من عمرى، وطلب منى الخروج معه لأنه يود التحدث معى، وسرنا وخرجنا من دار الأبحاث العلمية فى شارع نوبار، وسرنا فى الشوارع المحيطة بالمكان فى السيدة زينب، وأخذ يحدثنى عن وجود تنظيم سرى اسمه «الشرارة»، وأن الدراسة التى كنا نمارسها كانت فى إطار هذا التنظيم، وأننى بعد أن أمضيت فترة الترشيح بنجاح يعرض علىّ الانضمام إلى هذه المنظمة، وهو يريد أن ينبهنى إلى المخاطر التى يمكن أن أتعرض لها من سجن، وملاحقة، وتشريد، واضطهاد من جانب البوليس والسلطات، وأننى يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أقرر».

«لم أتردد وقررت القبول على الفور وأنا ممتلئ حماسا، ولم أنم فى تلك الليلة من الانفعال».

. . . . . .

. . . . . .

(٣)

وهو يتذكر بداية تجاربه في عالم اليسار المصرى المتشعب:

«أصبحت عضوا فى منظمة اسكرا (الشرارة)، واسكرا كلمة روسية معناها الشرارة، وهى مأخوذة من تاريخ الحركة الشيوعية فى روسيا حين أسس لينين جريدة سماها اسكرا، على أساس أنه من الشرارة يندلع اللهب (الثورة)، وعرفت أنه توجد فى مصر منظمات شيوعية أخرى، وكلها تعمل تحت الأرض، منها الحركة المصرية للتحرر الوطنى التى كان يرأسها هنرى كروييل، ويرمز إليها باسم «ح. م»، ومنظمة «الديمقراطية الشعبية» ويرمز إليها باسم «د. ش»، وعرفت أن مؤسسها يدعى جاكو دى كومب، وكان من أعضائها أحمد رشدى صالح الذى أصدر مجلة اسمها «الفجر الجديد»، وكان من أعضائها البارزين أحمد صادق سعد، ويوسف درويش، وهما يهوديان أصلا، ولكنهما أسلما، ثم منظمة «تحرير الشعب» التى أسسها مارسيل إسرائيل، ومن أعضائها أسعد حليم، وسعيد خيال رئيس «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، وكانت هناك منظمات صغيرة أخرى مثل منظمة «القلعة» التى أسسها مصطفى هيكل، والذى كان يسكن القلعة، وكان من أعضائها أحمد درويش، وفؤاد عبد الحليم، وحمدى عبد الجواد، وأحمد الرفاعى، وكانت هناك منظمة صغيرة فى الإسكندرية اسمها «الطليعة»، وكان من أعضائها فؤاد مرسى».

. . . . . .

. . . . . .

«ومن الملاحظ (الكلام لمحمد يوسف الجندى) أن مؤسسى أكبر أربع منظمات شيوعية كانوا يهودا، ولم يثر ذلك عندى أو عند غيرى أى تحفظ، ففى ذلك الوقت

وقبل حرب فلسطين كنا نتقبل وجود اليهود فى المجتمع المصرى، وكان لهم دور يتقبله الجميع فى المجتمع، وفى المجالات السياسية والنقابية والاقتصادية».

(٤)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن نشاطه فى أول خلية شيوعية انضم إليها فيوحى إلينا بخيبة أمله حين رُفض اثنان من مرشحيه الذين حاول تجنيدهم، وحين اكتشف فيما بعد سنوات رداءة موقف زميله صلاح نصار الذى كان قد جنده، وذلك عندما حقق معه صلاح نصار وهو رئيس للنيابة، كما أنه يأسف لموقف الدكتور محمد لبيب شقير الذى كان يردد الحديث عن مميزات الملكية، لكنه فى وسط هذا كله فخور بأنه كان هو الذى جند الناقد السينمائى مصطفى درويش:

«. . . كان مسئول أول خلية انضممت إليها يدعى محمد جمال الدين، وكان طالبا فى كلية الطب، وكانت الخلية تضمنى وتضم لطيفة الزيات التى كانت طالبة بقسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب، وكانت تسبقنى بسنة، فبينما كنت فى السنة الثالثة كانت هى فى السنة الرابعة».

«واصلنا الدراسة فى الخلية، وكانت تصلنا نشرة داخلية، ونناقش النشاط وتجنيد مرشحين جدد للتنظيم، وقد اجتهدت فى هذا المجال وكونت عدة مجموعات للمرشحين من طلبة كلية الحقوق أساسا، وأذكر من أوائل هؤلاء المرشحين الذين عملت معهم حوالى خمسة شهور وأتممنا دراسة الكورس النظرى الماركسى، اثنين هما: بهى الدين الرشيدى (الذى أصبح فيما بعد سفيرا فى وزارة الخارجية)، ومحمد فهيم (الذى أصبح بعد ذلك محاميا وعضوا نشيطا فى نقابة المحامين)، وبعد أن أنجزت معهما البرنامج، وشعرت أنهما جديران بالترشيح للتنظيم، اقترحت أن يقبلا كأعضاء، ولكن جاء الرد بالرفض بحجة أنهما عنصران مشكوك فى علاقتهما بالبوليس السياسى، فاضطررت لقطع العلاقة بهما رغم أننى لم أكن مقتنعا بجدية تلك الشكوك، وحزنت لذلك لأننى بذلت معهما جهدا، وكنت أعتبر أننى قمت بإنجاز (مهم) معهما، ولم أستطع مواجهتهما بتلك الشكوك، إلا أنهما أحسا بأن هناك شيئا غير عادى، وأصبحت فى وضع حرج، ولكننى واصلت عمليات التجنيد».

«ومن هؤلاء الذين رشحتهم وقدمتهم للمنظمة مصطفى درويش، الذى عمل بعد ذلك مستشارا فى مجلس الدولة وصار حجة فى السينما، عمل فترة مديرا للرقابة على الأفلام السينمائية، وحسن علام الذى زاملنى فى الدراسة وأصبح بعد ذلك مستشارا، وقمت بتجنيد صلاح نصار الذى فوجئت بعد ذلك عند اعتقالى عام ١٩٥٩ بتهمة تأسيس تنظيم شيوعى بأنه رئيس النيابة الذى يحقق معنا، وكان موقفه فى التحقيق فى غاية الرداءة».

«. . . وقمت فى هذه الفترة بترجمات كثيرة منها كتاب شامل عن الماركسية لكاتب إنجليزى اسمه إميل بيرنز، وكنت أعطى هذه الترجمة لعدد من زملائى الطلبة، ومن بينهم لبيب شقير الذى كان يدرس معى فى نفس السنة، وكنت أشعر بأنه يمكن كسبه، ولكن تفكيرى تغير عندما سألته مرة عن رأيه فى النظام الملكى، فأخذ يردد نفس الكلام عن ميزات الملكية التى ندرسها فى كتب القانون الدستورى».

(٥)

ويواصل محمد يوسف الجندى الحديث عن علاقاته فى إطار الانتماء للشيوعية فى خارج هذه التنظيمات وداخلها فيوحى لنا عن قصد بأن الحياة والحوارات السياسية كانت متواصلة بين الأقران والزملاء على اختلاف توجهاتهم:

«وكان من زملائى فى نفس السن كمال عبد الحليم، وكامل زهيرى، وإبراهيم خلاف (الذى قمت بتجنيده وترشيحه للتنظيم)، وتعرفت أيضا بعز الدين فودة، وإسماعيل صبرى عبد الله، وكانا يسبقانى بسنة، وعرفت أشخاصا من مختلف التنظيمات مثل كمال عبد الحليم (ح. م)، وفؤاد عبد الحليم (القلعة)، وأحمد رشدى صالح (الديمقراطية الشعبية)، وسعيد خيال (تحرير الشعب)، وعناصر كانت تعتبر نفسها تروتسكية مثل عادل أمين، وبعض العناصر كان يشاع عنها أنها تروتسكية مثل إسماعيل صبرى عبد الله، ونهيد أبو زهرة اللذين كانا لا يفترقان، وتعرفت بعناصر من الأحزاب الأخرى مثل محمد كامل (حزب وطنى)، وعبد المحسن حمودة، ومصطفى موسى (الوفد)، وحسان حتحوت (الإخوان المسلمون) وغيرهم».

«وكانت تدور مناقشات مع محمد كامل».

«أما الأصدقاء القدامى فبعد تخرجهم بدأت تفترق السبل، فجمال العطيفى يعمل فى النيابة، أما فتحى غانم فأصبح موظفا فى إحدى الوزارات، وكان مهتما بقراءات عديدة فى الفلسفة، وكان متأثرا بشوبنهاور ونيتشه وغيرهما من منظرى الفاشية، وكانت تدور بينى وبينه مناقشات عديدة نختلف فيها، ولكننى أذكر بعد عدة سنوات وأنا أعمل فى الأقاليم فى العمل السرى، أن التقيت به فى الطريق فحيانى بعاطفة شديدة وتعاطف، وأوصانى بالحذر».

«وكانت هناك أيضا مناقشات مع عز العرب أمين، أما جمال العطيفى فكان همه الأساسى الوصول إلى مركز مرموق فى المجتمع، وكان يعتقد أن النيابة يمكن أن توصله إلى ذلك».

«وكان أحمد رشدى صالح يطلب منى أن أكتب فى مجلة «الفجر الجديد»، وفى إحدى المرات أعطانى مواد لكتابة مقال عن الاحتكارات الدولية، وقد نشر المقال وأثنى رشدى صالح عليه».

(٦)

ونأتى إلى ما يرويه محمد يوسف الجندى عن قصة اعتقاله الأول حيث تدل روايته لها على قدر من السذاجة الطبيعية، كما تدل على المفارقة التى تتمثل فى سعادة الشيوعى بأن يشيع عنه اتهام بعيد عنه، لكنه يراد به تشويه صورته وصورة الشيوعيين، ومع أن هذا الاعتقال لم يدم أكثر من أربعة أيام فإنه مهد لتأكيد انتماء محمد يوسف الجندى إلى الحركة الشيوعية للأبد على نحو ما نرى فى فقرات تالية:

«فى أواخر ١٩٤٥ وأوائل ١٩٤٦ كنت قد كونت مجموعة مرشحين من مصطفى درويش، وكان طالبا فى كلية الحقوق، وطالب آخر فى كلية الهندسة لا أذكر اسمه الآن، وكنا نعقد اجتماعا فى أحد المنازل بالجيزة، وعند انتهاء الاجتماع فى منتصف الليل خرجت مع مصطفى درويش وأسرعنا للعودة إلى منازلنا، وكان مكان الاجتماع قريبا من منزل بهى الدين بركات باشا، وكانت قد انتشرت فى هذه الفترة العمليات الإرهابية، فقد اكتشفت قنبلة فى سينما مترو، وفى أماكن أخرى، وفى إسراعنا للعودة سمعنا صوت سيارة ورأيناها من بعيد وظننا أنها سيارة أتوبيس، وجرينا للحاق بها،

وتوقفت السيارة وظهر أنها سيارة شرطة، ونزل الضابط وسألنا لماذا نجرى؟ فأخبرناه أننا كنا نظن أنها سيارة أتوبيس، فأخذ فى تفتيشنا وأخرج من جيب مصطفى كتاب «البيان الشيوعى» فاقتادنا إلى قسم البوليس».

«وهناك فتشونا ووجدوا معى نوتة صغيرة بها بعض الرموز التى لم يفهموها، وعرضونا فى اليوم التالى على النيابة التى حققت معنا، سألنى المحقق عن الرموز فقلت إنها أسماء أصدقاء فقال: صديقات؟ قلت: نعم، ونشرت الصحف فى اليوم التالى نبأ اعتقال شيوعيين، وأن أحد الشيوعيين فسر الرموز بأنها أسماء صديقات، ولم يستطع وكيل النيابة أن يوجه إلينا أى تهمة محددة، ومع ذلك بقينا فى الحجز لمدة أربعة أيام أفرج عنا بعدها قاضى المعارضة».

«وكانت هذه أول تجربة فى الاعتقال، وكان عمرى عشرين عاما، وكان مصطفى أصغر منى بسنة على ما أعتقد، وكنت أسبقه بسنتين فى الدراسة بكلية الحقوق».

(٧)

ونأتى إلى اللحظة الفاصلة التى تخلى فيها محمد يوسف الجندى عن ثروته من أجل أن يصبح شيوعيا محترفا، ومع أن حسابات الجدوى والربح والخسارة (البسيطة والمنطقية) كانت كفيلة بأن تدل محمد يوسف الجندى على أن بإمكانه أن يحتفظ بأملاكه وإيراده منها، وأن ينفق على نشاطه الشيوعى من هذا الإيراد، فإن الجندى آثر فى لحظة توحد مع الشيوعية أن يتخلى عن كل ممتلكاته حتى يثبت لنفسه إيمانه وانتماءه بالشيوعية دون غيرها، وهكذا فإنه يروى أنه قرر أن يتنازل عما استطاع التنازل عنه من أمواله وأطيانه الكثيرة وأصبح شيوعيا محترفا:

«لم أستمر كثيرا فى دائرة المثقفين وانتقلت إلى دائرة الأقاليم، وكانت دائرة قد أسست حديثا بمسئولية فؤاد عبد الحليم شقيق كمال عبد الحليم، كان طالبا بالسنة الأولى بكلية الآداب، وكان فى عضوية اللجنة حمدى عبد الجواد، وصبحى زغلول، وبهاء فهمى، وكانت مهمة هذه الدائرة النشاط فى الأقاليم فى الوجهين البحرى والقبلى، وكان هذا العمل يتطلب التفرغ، وأن يقود النشاط محترفون، وعرض فى

أول اجتماع اقتراح من القيادة بالاحتراف ودعوة للقادرين بالاحتراف والتبرع بما يملكون، على أن يحصلوا على مرتب بدل احتراف هو ٨ جنيهات (ثمانية) فى الشهر، رفض بهاء فهمى، أما أنا فلم أتردد ووافقت على الفور، وكنت قد بلغت سن الرشد، ففى يناير من هذا العام (١٩٤٧) كنت قد بلغت ٢١ عاما، وكنت أملك بعض الأسهم تركها لى والدى، وكانت الأسرة تملك أرضا زراعية فى السنبلاوين (أبو الصير) على المشاع، وكان نصيبى الشائع فيها ١٦ فدانا قررت التصرف فى هذا كله وتسيلمه للحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى (حزب المستقبل)، التى وهبت حياتى كلها لها، وللقضية التى تعمل من أجلها».

«وفى اليوم التالى ذهبت إلى بنك مصر وقمت ببيع الأسهم بحوالى ٤٠٠٠ جنيه، وسلمت المبلغ للحزب، وعرفت بعد ذلك أنه تم شراء مطبعة بالمبلغ، أما بالنسبة للأرض فكان من الضرورى قسمة الأرض حتى يمكننى بيعها، فقمت ببيع ثلاثة أفدنة لأختى، وسلمت المبلغ للحزب، وأخذت أدرس مع القانونيين، ومنهم أحمد فؤاد، الطريق لبيع الفدادين الباقية التى كانت تخصنى».

«وانتقلت للعمل فى الأقاليم، وبدأت بطنطا، أما صبحى زغلول فكان مسئولا عن العمل فى الوجه القبلى، وخصص حمدى عبد الجواد للعمل فى الفلاحين».

(٨)

ويتحدث محمد يوسف الجندى حديثا حماسيا عن إحساسه المبكر حين تخلى عن كل شىء من أجل الشيوعية رغم نصح الناصحين، ومن الطريف أن الثائر الوطنى يوسف حلمى كان واحدا من الناصحين الذين قدر له أن يعتذر عن قبول نصائحهم:

«. . . وبدأت مرحلة جديدة من حياتى، فقد أصبحت ثوريا محترفا، وأحسست بأننى تخليت عن طبيقتى وأصبحت أنتمى إلى الكادحين، أعيش مثلهم، وفى مستواهم، وأصبح لا شىء فى حياتى له قيمة توازى هذا الانتماء، فلا المال يهمنى، ولا ليسانس الحقوق، ولا أى اهتمامات شخصية أخرى، فكلها تخضع لهذا الهدف، ولهذا الانتماء، وكان هذا هو غاية حياتى كلها».

«وتوالت علىّ النصائح من أقاربى ومعارفى، وكان عمى عبد القادر أكثر مَنْ يشغل نفسه بهذا الموضوع، ويكثر من تقديم النصائح لى، وفى محاولاته لإثنائى عن هذا الطريق استعان بأحد تلاميذ والدى، الذى كان يشاركه فى مكتبه للمحاماة، والذى استمر فى العمل به وهو يوسف حلمى، كان يحب والدى حبا جما، فكان يعتبره أستاذه، وألقى كلمة مليئة بالعواطف الحارة فى حفل تأبينه».

«أذكر أنه استعان بيوسف حلمى لإقناعى فقال يوسف حلمى: أنا أعرف أنك مثالى، وأنا أيضا مثالى، وأنا لا أطلب منك أن تترك ما تعتقده، ولكن لكى يكون لدعوتك أثر أكبر يجب أن تنهى دراستك وتحصل أولا على الليسانس».

«ولكن التيار كان قد جرفنى ولم أستطع التوقف، وكنت أخضع كل شىء للعمل الذى كنت أركز عليه، وهو العمل الحزبى».

(٩)

فيما قبل حديثه عن هذه اللحظات الفاصلة فى حياته، يقدم صاحب هذه المذكرات روايته لنشأته بأسلوب تقليدى جميل، ونحن نتأمل فيما يرويه محمد يوسف الجندى عن مولده ونشأته فى بيت يوسف الجندى فنراه معتزا بذاكرته التى تذكر الأحداث الوطنية التى مرت به حين كان عمره أربع سنوات فقط، ونجد فى روايته امتزاجا بالمعتقدات الطبية الشائعة، وحديثا عن طبيب أنقذ حياته، وهو لا يلتفت إلى أن هذا الطبيب بالذات أصبح وزيرا ليوم واحد هو اليوم السابق على قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، ومن الحق أن نشير إلى أن فقرة محمد يوسف الجندى على صغرها تحفل بكثير من ملامح التاريخ الاجتماعى والصحى فى أسرة مصرية ميسورة من أسرات ذلك العهد، ومع أن هذه الفقرات تعكس ثقافة صاحبها اللاحقة فيما يتعلق بفترات الحمل والولادة، وصحة الأم، وأسباب العدوى، وفائدة الرضاعة الطبيعية، إلا أن أسلوبه فى تسجيل هذه الأحداث يكاد يكون قريبا من أساليب السيدات المصريات فى روايتها على هذا النمط المبسط، وهو ما يدلنا على مدى ما كان يتمتع به الشعب المصرى من رابطة اجتماعية وثقافية قوية تكاد لا تخرج به عن أن يكون أسرة واحدة مهما كانت انتماءاتها السياسية والعربية والاجتماعية والمذهبية:

«. . . ولدت فى زفتى فى ١٢ يناير ١٩٢٦، وبعد بضعة شهور انتقلت أسرتنا إلى القاهرة، وكان والدى محاميا رشح نفسه لمجلس النواب فى أول انتخابات عام ١٩٢٤ عن حزب الوفد، وانتخب نائبا، واقتضى عمله بعد ذلك الانتقال إلى القاهرة».

«وسكنا فى حى روض الفرج، ولا أذكر هذه الفترة، ولكننى أتذكر شقتنا التى انتقلنا إليها بعد ذلك فى حدائق القبة، وأذكر المظاهرات ضد حكومة صدقى عام ١٩٣٠ التى كنت أرى جانبا منها من شرفة المنزل، والروايات العديدة عن الاعتقالات فى الشوارع، ووسائل النقل المختلفة، وكنت وقتها فى الرابعة من عمرى، ولكن هذه الأحداث تركت فىّ أثرا عميقا، وكنت أتعاطف مع هذه المظاهرات، ومع أولئك المعتقلين».

«ومازلت أذكر تلك الأحداث مثلها مثل الأحداث الأخرى الشخصية والعائلية».

(١٠)

وهو يعرفنا بأشقائه وشقيقاته بأسلوب أليف ومختصر:

«وكنا ستة من الأبناء، أكبرنا أحمد الذى يكبرنى بعامين بالتمام، وولد فى يناير أيضا ١٤ يناير ١٩٢٤، ولهذا كنا نحتفل بعيد ميلادنا فى يوم واحد هو ١٣ يناير، وبعدى تأتى بنتان هما عايدة وسعاد، ثم ولدان هما حسن الذى ولد عام ١٩٣٠، ثم صلاح الذى ولد فى أواخر عام ١٩٣١».

«وكنت أنا وأحمد الوحيدين اللذين ولدا فى زفتى، وأحمد أمضى سنتين وبضعة شهور فى زفتى، ولهذا يذكر بعض أحداث طفولته هناك، ومنها يوم وفاة جدى (والد أبى)، أما باقى الأخوات والاخوة فقد ولدوا جميعا بالقاهرة، وجاءوا تباعا فجاءت أختى عايدة بعدى بسنة وشهر، وتروى خالاتى أن ذلك سبب انقطاع رضاعتى الطبيعية التى لم تدم فترة كافية، ولهذا نشأت ضعيف البنية، ومرضت فى طفولتى بالالتهاب الرئوى، والنزلة المعوية، وارتفعت حرارتى ارتفاعا كبيرا، وفقدوا الأمل فى بقائى على قيد الحياة، ويروون أن طبيبا اسمه الدكتور سيد شكرى جاء ووضعنى فى الماء والثلج فعادت إلىّ الحياة وشفيت من مرضى، هذه روايات أسمعها ولكننى لا أذكر منها شيئا».

(١١)

وهذا هو حديث محمد يوسف الجندى عن والدته وعلاقات أسرته الاجتماعية :

«وتنحدر أمى من قرية تتبع مركز زفتى اسمها «الدغايدة»، واسم والدتى زكية محمد زهدى، وكان أبوها طبيبا اسمه محمد زهدى من الحزب الوطنى الذى كان يرأسه مصطفى كامل، وقد توفى فى سن مبكرة قبل مولدى، فكنت أسمع عنه كثيرا ولكنى لم أره».

«وكانت أمى تصغر أبى بحوالى سبع سنوات، تزوجا فى زفتى، وعاشا هناك فترة، انتقلا بعدها إلى القاهرة، وقد ولدتنا أمنا نحن الستة فى فترة سبع سنوات، وكان هناك ابن سابع ولكنه لم تكتب له الحياة، كانت مرهقة من كثرة الحمل والولادة، وقد أثر ذلك على صحتها، خصوصا أنها لم تكن تقوم بأى عمل آخر غير البقاء بالمنزل والإشراف على تربية أولادها، ومراعاة احتياجات زوجها، وكانت ربة بيت تقليدية، لا تخرج إلا برفقة زوجها، أو أحد أشقائها».

«وكانت أسرتنا «محافظة» من ناحية العلاقات الاجتماعية مثل أغلب عائلات الطبقة الوسطى فى ذلك الوقت، فلم يكن النساء يختلطن بالرجال، وكان للأزواج حياتهم الخاصة المستقلة عن حياة زوجاتهن، وهناك مجتمع للرجال، ومجتمع آخر للحريم».

«وكانت علاقتنا نحن الأولاد أقوى بأمنا من علاقتنا بأبينا الذى كان دائما فى الخارج مشغولا بالعمل، أو مع أصدقائه، وكان يقضى سهرته فى نادى «رمسيس»، وكانت له حياته المستقلة تماما ويعود إلى المنزل فى وقت متأخر من الليل، وكنا لا نجتمع معا إلا على مائدة الغداء، وكنا نحترمه احتراما شديدا ونخشاه، وعندما نراه نقبل يده، ولكننا كنا نعيش حياتنا الحرة مع أمنا، نلعب، ونمارس شقاوتنا أمامها».

«وقد لعبت خالاتى أيضا دورا فى تربيتنا، وكن قريبات الصلة بنا فى طفولتنا، وكن يساعدن أمى خصوصا فى الفترة التى سبقت زواجهن».

(١٢)

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر فلنقرأ هذه الفقرة التى يتحدث فيها محمد يوسف الجندى عن علاقة والديه بعضهما ببعض، وهو لا يبخل على والده بذكر ما يدل على مشاعره الأبوية الجميلة، لكنه يشير إلى توثق ارتباطه هو واخوته بوالدتهم بأكثر من ارتباطهم بوالدهم الذى كان مشغولا على الدوام:

«وكان (الضمير يعود على والده) يعامل والدتى برقة شديدة، ولا أذكر أنهما تشاجرا، أو أنه عنفها إلا مرة واحدة عاد من عمله ولم يكن المنزل قد انتهى تنظيفه وترتيبه بعد، فثار وغضب، ولكنه لم يوجه حديثه مباشرة إلى أمى، ولكنها تأثرت ونزلت دموعها فى صمت، وكثيرا ما كنت أراها حزينة تبكى بهدوء عندما كان أبى يتأخر فى الخارج، ولكنها لا تحدثنا عن أى شيء رغم أننا كنا نتبادل معها الأحاديث فى كل شيء بشكل مفتوح، ولم نكن نخشاها كما كنا نخشى أبى، فنلعب أمامها ونمارس شقاوتنا دون خوف من أى زجر، وهو الأمر الذى لم نكن نفعله أمام أبى، رغم أنه كان يحبنا جدا، ويتلاطف معنا ويداعبنا».

«وأذكر عندما مرضت أختى الصغيرة بالتيفود أنه كان شديد القلق عليها، وكان يحبها جدا، وأذكر أنه كان معى عطوفا وملاطفا، ولم يكن شديدا معى كما كان مع أخى أحمد، وكان هو وباقى الأسرة يستخدمون معنا أسماء التدليل».

وكان يرفض أن يعامل أولاده بشكل مميز، ففى إحدى المرات ذكر الخادم فى حديثه إلى أبى «حمادة بك» إشارة إلى أخى أحمد فعنفه، وقال له: هذا طفل فكيف تقول حمادة بك، وكان أحمد وقتها فى حوالى الرابعة عشرة من عمره».

«كنا أكثر انفتاحا على أمنا نمضى معها أغلب الوقت، وهى التى كانت تعتنى بنا مباشرة ونشعر بحرصها الشديد علينا، وكنا أهم شيء فى حياتها، ولم تكن لها أى متعة أخرى، وما أذكره عنها أنها كانت شديدة الطيبة».

(١٣)

ومع أن محمد يوسف الجندى لم يعش مع والده عمرا كثيرا، إذ توفى والده فى ١٢ ديسمبر ١٩٤١ قبل أن يبلغ التاسعة والأربعين، بينما كان هو على مشارف السنة السادسة عشرة من عمره، إلا أنه يذكر باعتزاز بعض انطباعات والده عنه:

«. . . أما نحن، أنا وأحمد، فكنا نتردد على نادى الشباب ونقوم بنشاط ثقافى، وأذكر وقتها أننى ألقيت محاضرة فى شعبة الإخوان المسلمين عن «الاشتراكية والإسلام»، وكنت قد بدأت أتعرف على الأفكار الاشتراكية، وكان أبى يقول لزواره من أهل زفتى: إن أولادى اشتراكيون، وأذكر أنه كان يقولها بفخر، ولكننى أذكر أنه كان من بين قراءاتنا كتاب لنيتشه «هكذا تكلم زرادشت» فكان أبى يناقش أحمد معترضا على أفكار نيتشه، وكنت فى ذلك الوقت فى بداية الشباب (الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة)».

(١٤)

ويقدم لنا هذا الجزء من مذكرات محمد يوسف الجندى أكثر من نموذج معبر عن طبيعة الصداقات العائلية التى تنشأ فى المجتمع نتيجة للجيرة والزمالة فى المدرسة، وكيف تمضى هذه الصداقات مع نهر الحياة، ونقتطف من هذه الذكريات ما يروى به بدايات صداقة جمال العطيفى وأسرته له ولأسرته:

«. . . فى هذا المنزل بدأت الدراسة الابتدائية فى مدرسة المنيرة الابتدائية، ولا أذكر بالضبط العام الذى بدأنا نسكن فيه فى هذا المنزل، ولكننى أرجح أنه عام ١٩٣٣ أو ١٩٣٤، وكان أخى أحمد أيضا يدرس فى هذه المدرسة، ولكنه كان يسبقنى بسنتين، وكان معه فى نفس السنة جمال العطيفى، الذى كان يسكن فى الشارع الموازى لشارعنا من ناحية أبو الريش وحى المنيرة، ومن هنا نشأت بيننا صداقة استمرت منذ ذلك الوقت، وتكونت أيضا صداقة مع أخويه وأخته التى صادقت أختى، وكنا نلعب معا كل أنواع لعب الأطفال، وكنا فى كل سن نلعب الألعاب التى تناسبها ونضيف إليها من خيالاتنا ألعابا أخرى، ولاشك أن تكويننا ونشأتنا وظروفنا كانت تحدد تلك الألعاب، وكان منزلنا الواسع والحديقة الواسعة التى تحيط به تساعدنا على التفنن فى مختلف الأشكال من الألعاب».

. . . . . .

. . . . . .

«وعندما أنهى أخى أحمد وصديقنا جمال المدرسة الابتدائية دخلا مدرستين مختلفتين، فذهب أحمد إلى المدرسة الإبراهيمية فى جاردن سيتى، وهى التى دخلتها أنا أيضا بعد ذلك، أما جمال العطيفى فقد دخل مدرسة الخديو إسماعيل، ومع ذلك فقد بقيت الصداقة، وتعاقب علينا الأصدقاء فى الفترات المختلفة، ولكن بقيت الصداقة مع جمال أطولها وأقواها، وبقيت مع أخى بالذات وثيقة حتى وفاة جمال».

«ومازالت الصداقة حتى الآن قائمة بين شقيقتى، وهى زوجة وأم وجدة، وبين شقيقة جمال العطيفى، وهى أيضا زوجة وأم وجدة، وشقيقتى هى زوجة الدكتور عصمت سيف الدولة، أما شقيقة جمال العطيفى فهى زوجة الدكتور صوفى أبو طالب، ورغم تفرق السبل واختلال السياسات فمازالت الصداقة قائمة بين كل منهما».

(١٥)

لكن محمد يوسف الجندى لا يبخل علينا فى الفترة التالية مباشرة بما ينبئ بوضوح عن حدود المسموح به والممنوع والمعتاد فى مثل هذه الصداقات فى عقلية رب أسرة كان من زعماء الوفد الكبار، وقد نقلنا من حديثه مثلين لما كان ممنوعا، ومثلا لما كان معتادا، وهو يتحدث عن هذه التقاليد بما يشبه الاعتذار أو التبرير، وما كان أغناه عن هذا الاعتذار أو التبرير:

«وكان أبى رجلا شرقيا محافظا، فزوجته لا تظهر على أصدقائه من الرجال، وكذلك باقى النساء فى المنزل (خالاتى وشقيقتاى)، ورغم أن شقيقتىّ كانتا تشتركان معنا فى اللعب، وكان لدينا فى الدور الأسفل حجرة للضيوف وحجرة للمكتب، ثم الحديقة والبدروم، وهى الأماكن التى يمكن للضيوف من الرجال أو الأولاد التواجد فيها، أما الدور العلوى فيمنع صعودهم إليه إلا إذا كانوا من الأقارب القريبين (أعمام أو أولاد العم)، وأذكر أننا دعونا مرة جمال العطيفى وهو طفل للصعود للدور العلوى فغضب أبى غضبا شديدا عندما عرف بذلك».

«وأذكر مرة أننا دعونا جمال العطيفى وصديقا آخر إلى زفتى وأمضينا الليل فى المنزل الصغير الذى كان مكتبا لعمى عوض، والذى كان مستقلا تماما عن منزلنا، إلا أنه غضب أيضا لدعوتنا أصدقاء للمبيت».

«وعندما تزوجت أختى عايدة، وهى أصغر منى بسنة، ولم تكن بلغت بعد السادسة عشرة من عمرها، وقد تقدم محام شاب اسمه أنور وحش، من عائلة وحش بيشلا مركز ميت غمر، يخطبها من والدى، الذى وافق على الخطبة وزوج أختى دون أخذ رأيها، لم يكن هذا أمرا شاذا بالنسبة لوالدى، فقد كانت هذه هى التقاليد بالنسبة للغالبية الساحقة من أسر الطبقة الوسطى فى مصر فى هذه الفترة (الثلاثينيات والأربعينيات)، وقد تغير الأمر كثيرا بعد ذلك، فتغيرت التقاليد وأصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة أكثر حرية وانفتاحا مع خروج المرأة للعمل، ومزاملتها الرجل فى العمل والدراسة».

(١٦)

وهذا مثل آخر ينبئنا به محمد يوسف الجندى (فى موضع آخر) عن أن هذه التقاليد العائلية المحافظة قد شكلت طباعه، وحكمت تصرفاته فيما بعد ذلك:

«. . . وأذكر فى أول مرة نذهب فيها إلى رأس البر، وكان عمرى وقتها حوالى السادسة أو السابعة، وكان أولاد صبرى أبو علم بنتين، الكبرى سنها مقاربة لسن أحمد، والتالية سنها مقاربة لسنى، وكانت هناك بنت ثالثة أصغر منهما، ثم ولد صغير، ونشأت صداقة بيننا وبين البنات وبين أمهم وأمى، وكنا نحن الأطفال نلعب معا ونمضى طوال الوقت معا، وانجذب أخى أحمد للابنة الكبرى، وانجذبت أنا للابنة الثانية، وكان هذا بالنسبة لى شعورا لم أعهده من قبل».

«وتوالت بعد ذلك سفريات الصيف إلى رأس البر، ثم إلى الإسكندرية فى سيدى بشر حيث كنا نصيف معا».

«ولكننى بعد أن دخلت بعد ذلك فى فترة المراهقة تحولت إلى ولد خجول منطو أتهيب من لقائهن عندما يأتين لزيارتنا».

. . . . . .

. . . . . .

ربما جاز لنا هنا أن نتوقف لنشير إلى مفارقة طريفة، وهى أن مقر دار النشر التى كان

محمد يوسف الجندى صاحبها، والتى تولت نشر هذا الكتاب، كان فى شارع محمد صبرى أبو علم، ولسنا ندرى هل كان صاحب المذكرات يتذكر ذكرى هذه الأيام القصيرة فى رأس البر كلما أتى داره فى الصباح أو فى المساء؟

(١٧)

ويكاد محمد يوسف الجندى ينفرد بذكر رواية مختصرة عن اليوم الذى رشح فيه والده وزيرا للمعارف فى وزارة النحاس باشا، وهى واقعة معروفة، فإذا هو يضيف إلى ما ذكرته أدبيات التاريخ والمذكرات ما ينفرد به من أن والده لبس ملابس التشريفة ليحلف اليمين، لكنه عاد دون حلف اليمين، وهو يردف هذا بالحديث الصريح عن محاولة القصر استمالة والده ضد الوفد نفسه، وهو يبدى أسفا يسيرا لأن والده لم يحصل على الباشوية مع أقرانه الثلاثة:

«... وأعيد تشكيل الوزارة عام ١٩٣٧، واختار النحاس الوكلاء البرلمانيين الأربعة وزراء فى وزارته، واختير أبى وزيرا للمعارف (وهو اسم وزارة التربية والتعليم فى ذلك الوقت)، ونشرت كل الصحف أسماء المرشحين للوزارة وصورهم بما فيها صورة أبى، واستدعى المرشحون إلى السراى لحلف اليمين، وأذكر ذلك اليوم وكيف لبس أبى ملابس التشريفة (ملابس الردنجوت)، وتوافد المهنئون، وعاد أبى من السراى دون أن يحلف اليمين، وعرفنا بعد ذلك أن الملك فاروق رفض تعيينه وزيرا، وخيم على المنزل جو قاتم، وبدلا من توافد المهنئين توافد المتضامنون، ولم يرد القصر أن يقول الأسباب الحقيقة، ولكن الجميع تأكدوا أن السبب فى ذلك هو دور أبى فى ثورة ١٩١٩ وجمهورية زفتى، فضلا عن أنه كان له موقف ضد الأوقاف الملكية واعترض أكثر من مرة فى البرلمان وصوت ضد المخصصات الملكية».

«وقد أدى موقف السراى إلى أزمة بين القصر والوفد. رفض الوفد موقف السراى وسوى الأمر بعد عدة شهور بأن عاد أبى وكيلا برلمانيا لوزارة الداخلية كما كان، وكان ذلك ترضية له وإلغاء لكل الاتهامات والمحاولات لتلويث سمعته».

«وقد حاولت السراى فى فترة لاحقة استرضاءه فعينته عضوا فى مجلس الشيوخ،

وكان الدستور السارى وقتها يعطى الملك حقا فى تعيين ثلث أعضاء مجلس الشيوخ، وقد اعتاد الملك أن يعين أغلبهم من الحزب الحاكم، لكنه عين أبى من بين مَنْ عينهم، وكانت السراى تحاول دائما إحداث انشقاقات داخل الوفد، وتحاول اللعب على أى خلافات داخلية، كما فعلت بالنسبة لانقسام أحمد ماهر والنقراشى، وكما فعلت بعد ذلك بالنسبة لمكرم عبيد وانقسام الكتلة الوفدية»

. . . . . .

. . . . . .

«حصل الوزراء الثلاثة الذين كانوا وكلاء برلمانيين مع أبى على الباشوية، أما أبى فقد كان وكيلا برلمانيا فلم يحصل على أى لقب».

(١٨)

وهو يشير أيضا إلى موقف معروف لوالده حين لم يلتزم بما كان الوفد قد رآه من ضرورة استقالة النواب والشيوخ الوفديين ومقاطعة البرلمان احتجاجا على تزوير الانتخابات، فى عهد محمد محمود، وهو فخور بأن «إيجابية والده» كانت أكثر فائدة للوفد والوطن:

«. . . ولكن أبى ظل على انتمائه لحزب الوفد رغم وجود بعض الخلافات بينه وبين قيادة الوفد التى كانت تريد أن يستقيل كل النواب والشيوخ الوفديين ويقاطعوا البرلمان، وكان لأبى رأى آخر».

«وكانت حكومة الأقلية قد زورت الانتخابات بحيث لم ينجح غير عدد قليل من النواب الوفديين، وكان أبى وعدد قليل من الوفديين يمثلون المعارضة الوفدية فى مجلس الشيوخ، وكان محمود بسيونى زعيم المعارضة فى مجلس الشيوخ، وأبى نائبا لزعيم المعارضة، ولكن الواقع أنه كان الزعيم الفعلى للمعارضة فى مجلس الشيوخ، واستطاع من خلال منبر المعارضة أن يرفع رأى المعارضة ضد الحكومة ويستخدم ذلك لكشف الممارسات الحكومية، وقد اكتسب فى ذلك الموقع احترام الجميع، وأذكر من كلمات أنطون الجميل فى حفل تأبينه بعد وفاته قول إنه لم يكن فى الوزارة وزيرا ولكنه كان الوزير الفعلى، وإنه لم يكن فى المعارضة زعيما لها ولكنه كان الزعيم الفعلى».

(١٩)

ونأتى إلى معرفة محمد يوسف الجندى باليسار فنجده حريصا على أن يذكر أن علاقته بالفكر الاشتراكى بدأت بمفارقة طريفة، ذلك أنها بدأت من خلال قراءته كتابا يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها، وليس هذا بالأمر المستغرب فى مثل هذه الانتماءات الفكرية التى تقوم أساسا على الاقتناع لا على مجرد الإيحاء، لكننا نكون ظالمين إذا نحن تغاضينا عن الإشارة بموضوعية المؤلفين اللذين حرصا على ذكر الحقيقة:

«. . . ومن الغريب أن كتابا فى الاقتصاد السياسى للدكتور عبدالحكيم الرفاعى وزكى عبد المتعال قرأته فى ذلك الوقت، وكان له تأثير علىّ، ورغم أن الكتاب فى مجموعه كان يرفض الاشتراكية ويقدم الحجج ضدها، إلا أنه عندما تعرض لمشروع السنوات الخمس الأولى فى الاتحاد السوفيتى ذكر أن الاتحاد السوفيتى هو البلد الوحيد الذى لم يعان من أزمة ١٩٢٩ التى شملت العالم الرأسمالى، وكان لذلك تأثير كبير علىّ، إذ فكرت أن مثل هذا النظام لابد أن له أفضلية على النظام الرأسمالى».

«وكان انتماؤنا للفكر الاشتراكى لا يرتبط بمذهب معين، لكنه كان انعطافا نحو الكادحين ورفض الاستغلال والظلم الاجتماعى، والرغبة فى تحقيق العدل الاجتماعى، وكنا نؤمن أننا يجب أن نكرس أنفسنا للعمل من أجل هذه الأهداف».

أما بداية ارتباط محمد يوسف الجندى بالحركة الشيوعية ارتباطا عضويا وتنظيميا فهو لا يصورها إلا بعد أكثر من عشر صفحات من هذا الحديث الباكر حيث يردف أن جمال العطيفى الذى لم يمارس اليسارية بعد ذلك أبدا كان هو الذى دعاه إلى ذلك اللقاء الفارق الذى تحول صاحب المذكرات بعده إلى اليسار:

«. . . فى السنة الأولى بكلية الحقوق كنت أهتم بدراستى، وأنهيت امتحاناتى بدرجة جيد، وتخرج أحمد وجمال العطيفى، وفى أحد أيام الصيف أخبرنى جمال العطيفى أن هناك محاضرة لزكى هاشم عن «الملكية الزراعية فى مصر» فى مكان بشارع قصر العينى يدعى «لجنة نشر الثقافة الحديثة»، فذهبت إلى هناك ولم يذهب جمال، وأجلت المحاضرة ولكننى تعرفت برئيس اللجنة وهو سعيد خيال، الذى اهتم بمجيئى

ودعانى إلى الانتظام فى الحضور إلى اللجنة التى كانت تعقد فيها ندوة أسبوعية، وأعطانى بعض الكتب للقراءة».

(٢٠)

وهو يحدثنا عن تردده على «لجنة نشر الثقافة الحديثة ثم تحوله عنها إلى «دار الأبحاث العلمية».

«انتظمت فى التردد على لجنة نشر الثقافة الحديثة، وتعرفت هناك على أشخاص جدد منهم عبد الرحمن الشرقاوى، ونعمان عاشور، ومصطفى كامل منيب، وأسعد حليم، وأحمد رشدى صالح، وأحمد صادق سعد، وريمون دويك وغيرهم».

«وواظبت على الزيارة الأسبوعية للجنة نشر الثقافة الحديثة، وكانت قريبة من منزلنا، ولم يذهب إلى هناك جمال العطيفى ولو مرة واحدة، رغم أنه هو الذى أرشدنى إليها، واستمر سعيد خيال فى تزويدنا بالكتب، كانت كتبا عن الاشتراكية، وعن الحياة فى الاتحاد السوفيتى، وكانت المحاضرات والندوات كلها تعالج المشاكل الاجتماعية والسياسية من منطلق يسارى».

«وفى أحد الأيام وفى ندوة من الندوات تعرفت بأنور عبد الملك الذى دعانى إلى دار أخرى تقع فى شارع نوبار اسمها «دار الأبحاث العلمية» جذبتنى بعد ذلك أكثر من لجنة نشر الثقافة الحديثة، فقد كان الحضور أكثر عددا، والتنظيم أفضل، فإلى جانب المحاضرات والندوات الأسبوعية كانت هناك لجان مختلفة: لجنة السياسة الداخلية، ولجنة للسياسة الخارجية، وأخرى للاقتصاد، ولجنة لقضايا التعليم، وأخرى للشباب.. إلخ، وتعرفت هناك على شخصيات أخرى أساتذة ومدرسين ومعيدين وطلبة من الرجال والنساء والفتيات».

(٢١)

وهو لا يلبث أن يعترف بالفضل لدار الأبحاث العلمية فى التحول الفكرى الذى حدد خطى حياته وتوجهاته فيما بعد ذلك، وهو كعادة زملائه الشيوعيين لا يبخل علينا بمن يريد أن يذكر أنه تعارف بهم فى هذه الفترة الباكرة، وكما تعودنا فى مثل هذه الأدبيات

اللاحقة فقد كان هناك آخرون بالطبع، لكن الروايات الانتقائية فى روايات الشيوعيين عن تاريخهم تحرص على أن تنتقى الأسماء التى كان لوجودها واقترانها دلالة:

«. . . كانت زيارتى لدار الأبحاث العلمية تمثل نقطة تحول جذرية فى حياتى، فمن خلالها ارتبطت بالحركة الشيوعية، وهو الارتباط الذى حدد مسار حياتى كلها بعد ذلك. عز الدين رفعت يتردد أيضا على دار الأبحاث العلمية، أما أخى أحمد، وكذلك جمال العطيفى، وفتحى غانم وباقى الأصدقاء، فكانت لهم اهتمامات أخرى، خصوصا بعد أن أنهوا دراساتهم الجامعية. فأخى كان مشغولا بالعمل مع عبد الحميد عبد الحق، أما جمال العطيفى فقد عمل فترة فى الإدارة القانونية بإحدى الوزارات، ثم عمل فى النيابة».

«وتعرفت فى دار الأبحاث العلمية بشخصيات جديدة منهم شهدى عطية الشافعى، وعبد المعبود الجبيلى، وكانا يديران بالفعل العمل فى الدار، وكانت معهما مجموعة من المعيدين فى كلية العلوم مثل أحمد شكرى سالم، وعبد الرحمن الناصر، وبعض طلبة كلية العلوم مثل جمال غالى، وفاطمة زكى، وبعض طلبة الآداب مثل لطيفة الزيات. ، وثريا أدهم وغيرهم، وكانوا جميعا فى نشاط وحركة دائمة بهرتنى وجعلتنى أرتبط بهم وأندمج فى هذا الجو، وفى أحد الأيام دعانى أنور عبد الملك لزيارته فى منزله حيث وجدت هناك شهدى عطية الشافعى، وكان يعمل مفتشا للغة الإنجليزية، وظريف عبد الملك، وكان قد تخرج من كلية الحقوق وهو من دفعة أخى أحمد».

«واقترح علينا شهدى أن نلتقى بشكل دورى لدراسة الماركسية، وبدأنا بدراسة الفلسفة الماركسية، ثم الاقتصاد السياسى، ثم تاريخ الحزب الشيوعى السوفيتى، ونظرية الحزب، وغير ذلك من الموضوعات، وفى كل جلسة كان أحدنا يقوم بتلخيص أحد الكتب، وكانت الكتب التى نقرؤها ونلخصها كلها باللغة الإنجليزية لندرة الكتب العربية الماركسية فى ذلك الوقت».

«استمر هذا الوضع لمدة أربعة أشهر، وكانت هذه اللقاءات والقراءات والتلخيصات وترددى على دار الأبحاث العلمية تأخذ الجزء الأكبر من اهتمامى، وأصبحت أهتم بها أكثر من اهتمامى بدراستى الجامعية».

(٢٢)

ثم يعاود محمد يوسف الجندى الرجوع إلى ذاكرته ليحدثنا عن إرهاصات أكثر تبكيرا فى علاقته بالحركة الاشتراكية، والفكر الاشتراكى، فنفهم مما يرويه أن الدعاية السوفيتية فى تلك المرحلة كانت قادرة على أن تتيح كثيرا من أدبيات اليسار فى متناول جموع كبيرة من الشباب فى مقتبل أعمارهم، كما نفهم أن الانتصارات السوفييتية لعبت دورها الإنسانى والفعلى فى إقناع الشباب بعظمة الفكر الذى كان وراء السياسة التى انتصرت قواتها، ولعل مثل هذه الدروس الواضحة تقنع أهل الفكر فى بلادنا بجدوى النجاح وآثاره، وأهمية التعويل عليه فى نشر الفكر:

«لم تكن هذه هى اهتماماتى الأولى بالاشتراكية، وقد تحدثت قبل ذلك عن الاهتمامات السابقة، وأضيف أنه فى الماضى كنت أهتم بمطالعة «المجلة الجديدة»، وفى أثناء الحرب وأثناء انتصارات ستالينجراد، وكنت قد قرأت الدستور السوفيتى وبعض الكتب الأخرى عن الاتحاد السوفيتى، وقد أثرت الانتصارات السوفيتية فى ستالينجراد تأثيرا كبيرا علىّ، فانتهزت فرصة علاقة نشأت مع مجلة «الشعلة» الوفدية، التى كان أحمد وجمال العطيفى ينشران بها قصصا، فكتبت إليها مقالا بعنوان «روسيا السوفيتية» أكدت فيه أن انتصارات ستالينجراد هى انتصار للنظام السوفيتى، وأن النظام الاشتراكى هو الذى مكن السوفييت من تحقيق هذا الانتصار، وقد فوجئت بقيام المجلة بنشر مقالتى على صفحتين كاملتين فى مكان بارز أثنى الكثيرون، ومنهم عمى عبد القادر، عليها، وكنت راضيا جدا عن ذلك».

«وقد كانت هذه المقالة تعبر عن تطور فى موقفى من ألمانيا الهتلرية، وقد كنت فى السابق أعتبرها اشتراكية، خصوصا بعد قراءتى كتاب «ألمانيا اليوم».

. . . . . .

. . . . . .

على هذا النحو يتحدث محمد يوسف الجندى ثم هو يقول:

«لهذا فإن ذهابى إلى لجنة نشر الثقافة الحديثة، ثم دار الأبحاث العلمية كانت له

مقدمات، ولم يبدأ من لا شيء، ولكننى وجدت أخيرا فى دار الأبحاث العلمية، ثم فى الحركة الشيوعية بعد ذلك الضالة التى كنت أبحث عنها، واستطعت من خلالها أن أحدد انتمائى الحقيقى، وأن أحدد طريقى فى الحياة».

(٢٣)

ولا نزال مع محمد يوسف الجندى وهو يحاول أن يشعرنا أن انتماءه للحركة الشيوعية لم يكن بالأمر المستغرب، وإنما كان أمرا طبيعيا، بيد أن حديثه هذا الذى استخدم له ثلاثة محاور تعرضنا لاثنين منهما وسنعرض للمحور الثالث بعد قليل، يدفعنا إلى إدراك حقيقة أن محمد يوسف الجندى كان يحس بغربته بعدما اعتنق هذا الفكر الشيوعى، وهو لهذا يدافع لنفسه عن إحساسه بالغربة ناسبا توجهاته الفكرية إلى أحاسيسه الوجدانية:

«. . . وكان ارتباطى بالحركة الشيوعية هو استمرار لجهد وبحث طويل استمر عدة سنوات، كان يحكمه إحساس عميق بضرورة تحقيق العدالة الاجتماعية، ومراعاة مصالح الغالبية الساحقة الكادحة من الفلاحين والعمال، ورفض الاستغلال، ورفض المجتمع الذى تعيش فيه قلة مترفة على حساب الغالبية الساحقة الكادحة، وهو استمرار للموقف الوطنى الذى يدعو للتحرر من الاستعمار والاحتلال، وهو النضال الذى لا ينفصل عن النضال ضد أعوان الاستعمار الذى كنت أرى أنهم السراى وعملاؤها وحلفاؤها من كبار الملاك والمترفين المستغلين».

. . . . . .

. . . . . .

«ولم أجد أى تعارض بين الاشتراكية والإسلام، فقد نشأت مسلما أؤمن بالله، وأواظب على تأدية فرائض الصلاة والصوم، وقرأت حياة محمد والخلفاء الراشدين، وقصص القرآن، وتأثرت بها، وكنت أرى أن مضمون الإسلام هو العدالة الاجتماعية، ولهذا كنت صادقا مع نفسى عندما قدمت محاضرة «التضامن الاجتماعى والإسلام»، ومحاضرة «الاشتراكية والإسلام»، ولم أجد أى تناقض عندما وضعنا برنامج جمعية البعث الاجتماعى، الذى كان البند الأول فيه «إلغاء الملكية الفردية

لوسائل الإنتاج» أن نضيف فى نهايته «الشريعة الإسلامية» بعد نقاش مع أعضاء من الإخوان المسلمين، ولم أجد فى ذلك أى تنازل عن المبادئ».

(٢٤)

ولا يفوت محمد يوسف الجندى أن يروى لنا أن انتماءاته الأولى كانت وفدية فى مقابل ما كان شائعا فى شباب جيله المتحمسين، ومنهم بعض أصدقائه، من الانتماء إلى مصر الفتاة:

«. . . وقد تأثرت بوالدى وبالأسرة التى نشأت فيها، فكنت فى البداية وفديا، مثل والدى، ثم أصبحت اشتراكيا، وأذكر فى شبابنا المبكر أو فى طفولتنا أننى كنت أدافع عن الوفد فى مواجهة جمال العطيفى الذى كان يدافع عن مصر الفتاة التى كان يتعاطف معها».

. . . . . .

. . . . . .

«صحيح أنه بعد انضمامى للحركة الشيوعية، وبعد دراستى للماركسية حدث تطور فى مفاهيمى، لكن لم يحدث تغيير فى جوهر انتماءاتى وانحيازى للغالبية الكادحة التى كانت تتحدد وتتعمق وتتطور وتزداد نضجا مع تقدمى فى العمر، ولم أشعر فى أى وقت من فترات عمرى بخيبة أمل فى اختياراتى الفكرية أو السياسة فى خطوطها الأساسية. قد أشعر مع تقدمى فى العمر أننى كنت أكثر اندفاعا ورومانتيكية، ومن المحتمل أننى قد أعدل بعض المسالك العملية فى طريقى وحياتى، لكن ذلك لا يمس الاختيارات الفكرية والسياسية الأساسية».

ونأتى إلى اللحظة الفارقة التى جعلت محمد يوسف الجندى لا ينام فى ليلتها من الانفعال:

«ومع هذه النشأة كان طبيعيا أن أشعر بحماس وانفعال شديد عندما طلبنى شهدى عطية الشافعى بعد إحدى الأمسيات فى دار الأبحاث العلمية وحدثنى عن الانضمام إلى منظمة الشرارة «اسكرا»، وكان ذلك فى عام ١٩٤٥، وكنت فى التاسعة عشرة من

عمرى، وطلب منى الخروج معه لأنه يود التحدث معى، وسرنا وخرجنا من دار الأبحاث العلمية فى شارع نوبار، وسرنا فى الشوارع المحيطة بالمكان فى السيدة زينب، وأخذ يحدثنى عن وجود تنظيم سرى اسمه «الشرارة»، وأن الدراسة التى كنا نمارسها كانت فى إطار هذا التنظيم، وأننى بعد أن أمضيت فترة الترشيح بنجاح يعرض علىّ الانضمام إلى هذه المنظمة، وهو يريد أن ينبهنى إلى المخاطر التى يمكن أن أتعرض لها من سجن، وملاحقة، وتشريد، واضطهاد من جانب البوليس والسلطات، وأننى يجب أن أفكر كثيرا قبل أن أقرر».

«لم أتردد وقررت القبول على الفور وأنا ممتلئ حماسا، ولم أنم فى تلك الليلة من الانفعال».

(٢٥)

وفى خضم هذا كله لا ينسى محمد يوسف الجندى أن يعبر عن غربة اليساريين تجاه عائلاتهم وكيف كانت هذه العائلات تضيق وتحتج وتحاول الإقناع بالترغيب والترهيب، وهذا نموذج طريف من نماذج ترهيب الأهل لأبنائهم للبعد عن الحركة الشيوعية، وهو ترهيب طبيعى ومرتب ومستند إلى حقائق:

«. . . ومن أمثلة ذلك أننى قبل اعتقالى بعدة شهور كنت قد شعرت ببعض الألم فى منطقة الصدر، وكان لى صديق يدرس فى كلية الطب، وكان يتردد معى على دار الأبحاث العلمية، فاستشرته فى هذا الألم فوضع يده على قلبى وقال: إنه القلب، ففزعت فزعا شديدا لعلمى بأن أبى مات من مرض القلب، وكذلك أمى، فأصبت بوهم شديد، وارتفعت دقات قلبى بحيث إنى مرضت بالفعل عدة أيام وأصبحت أرقد طول الوقت ولا أتحرك، فأخذنى أنور وحش زوج أختى إلى أحد أطباء القلب الذى كشف علىّ وطمأننى وسخر من قول صديقى الطالب فى كلية الطب، وقال: إن قلبى سليم تماما، وإن كل شىء سليم، ويبدو أنه قاس ضغط الدم ووجده مرتفعا ١٦٠/ ٨٠ لكنه لم يقل لى شيئا بخصوص ذلك».

«خرجت من عند الطبيب وأنا أشعر أنى معافى تماما، وبعد أن كنت أتحسب فى سيرى أصبحت أقفز درجات السلم، وقد انزاح عن صدرى عبء الوهم الشديد».

«بعد خروجى من الحبس أراد زوج أختى أن يخيفنى فأخبرنى بأن الطبيب وجد ضغط الدم عندى مرتفعا، وأننى يجب أن أراعى ذلك، وأتجنب السجون والمشاق مراعاة لصحتى».

«لم أعر ذلك أى اهتمام فى ذلك الوقت، ولم أخف، فقد كان انخراطى فى العمل السياسى وإيمانى بما أقوم به أقوى من أى اعتبارات أخرى».

(٢٦)

ونأتى إلى اغتراب الهروب الذى مارسه محمد يوسف الجندى باقتدار وحنكة، وهذه فقرات سريعة متلاحقة الأنفاس يروى بها محمد يوسف الجندى تجربته مع الهرب من السجن، والعيش هاربا من أعين البوليس بكل ما تحفل به هذه الفقرات من تجارب إنسانية وعاطفية:

«. . . كنت فى الرابعة والعشرين من عمرى، وقد خرجت من السجن متطلعا للحياة بكل معنى الحياة، سواء حياة النضال، أو حياة شاب فى مثل عمرى يريد أن يعيش ويحب ويتزوج ويعيش مثل بقية الشباب، وكان خروجى من السجن والهرب منه يعكس أيضا تعلقى بأن أعيش حرا، أفعل ما أريد، ولكننى فوجئت بحياة أخرى قاسية جدا، فليس فى استطاعتى أن أمارس شوقى إلى مواصلة نضالى لاعتبارات الأمن التى تفرض علىّ أن أظل مختفيا، وأن أقلل اتصالاتى وتحركاتى، وأنفذ بدقة التعليمات التنظيمية بهذا الخصوص، ولا أستطيع أن أعيش حياتى كشاب فى مقتبل شبابه، فاتصالاتى محدودة ويجب ألا يعرف أحد بمكان وجودى لأن البوليس يبحث عنى ويطاردنى».

«لم أكن أستطيع الخروج إلى الشارع إلا عندما أنتقل من مخبأ إلى آخر. تنقلت بين اثنى عشر منزلا، وحدثت نوادر وطرائف أثناء اختفائى، فقد كان يوسف إدريس واحدا ممن اختفيت عندهم، وكان يقطن هو وشقيقه فى حجرة بالجيزة لم يكن بها غير سرير وكنبة ومكتب، أما السرير فكنت أنام عليه أنا ويوسف إدريس، أما الكنبة فكان ينام عليها شقيقه. كان يوسف إدريس يدرس فى السنة النهائية بكلية الطب، وفى أحد الأيام شعرت بآلام شديدة فى أذنى ولم يكن فى وسع يوسف إدريس أن يعرضنى على

طبيب فذهب إلى أستاذه فى الأذن والأنف والحنجرة بكلية الطب ووصف له الأعراض التى أعانى منها فوصف له الدواء الذى أحضره لى وعالجنى واختفت الآلام».

«وكنت كلما ألقى يوسف إدريس بعد ذلك يذكرنى بتلك الواقعة».

(٢٧)

وهذه تجربة أخرى أكثر حياة وإثارة، لكن محمد يوسف الجندى يرويها فى تعقل وحياء لا يخفيان كثيرا من ملامحها:

«وفى فترة تولى أحمد طه عملية إخفائى، رتب سكنى عند أحد الأشخاص وزوجته فى الساحل، وكانا يشفقان علىّ، رتبا أن أتنكر فى زى سيدة تلبس الملابس البلدية، وخرجت معهما وذهبنا إلى إحدى دور السينما، وبقيت فترة فى هذا المنزل. كان الرجل وزوجته متعاطفين معى ويحاولان تسهيل مدة اختفائى إلا أنه بعد فترة بدأت الغيرة تنتاب الرجل من بقائى فى المنزل مع زوجته عند خروجه، فأخبرت أحمد طه الذى رتب لى أن أنتقل إلى مكان آخر».

«وقد تأثر الرجل وزوجته عندما نقلنى أحمد طه عند أحد معارفه فى مصر الجديدة، وكان يسكن بمفرده، وأخبرنى أنه كان مصابا بالسرطان. كان أعزب، وكان يكثر التردد عليه بعض الأصدقاء وبعض المومسات، وكان أحيانا يترك إحدى المومسات تنام معى فى حجرتى، ولكنى لم أستطع أبدا التجاوب معها».

«وكان هذا الشخص الذى أقطن معه غريب الأطوار، وكانت له حياة وعلاقات غريبة، ولكنه كان يحترمنى ويحترم عاداتى وظروفى، وقد استفدت فى هذه الفترة أننى بدأت أتعلم إعداد الطعام بنفسى، وهو أمر لم أكن أعرفه من قبل».

«انتقلت أيضا للسكن مع صلاح القلش وتعرفت به وبأخيه كمال القلش، وكان كمال صغير السن فى هذه الفترة، ودارت بينى وبينه مناقشات سياسية كثيرة، وكان صلاح أعزب وعلى علاقة حب بإحدى الفنانات، وأذكر فى أحد الأيام وكان ينتظر زيارة منها فقام بتنظيف المنزل وأعجبت به كثيرا، وهو يمسك «الخيشة» بنفسه ويقوم بتنظيف الشقة بكفاءة شديدة، وأذكر فى هذه الفترة أن صلاح طلب منى أن أكتب

محاضرات مبسطة للتعريف بالاشتراكية، فقمت بكتابتها وفوجئت بعد ذلك أنها سلمت للمنظمة وطبعت فى شكل كورس للتجنيد، فسررت أننى استطعت أن أقوم بعمل مفيد».

«وانتقلت فترة للسكن مع أحمد حمروش، وكان ضابطا فى الجيش، وكان مهتما بالكتابة، وكان يعرض علىّ كثيرا مما يكتبه ليأخذ رأيى فيه».

«وعشت عدة أيام فى بولاق فى حجرة فوق السطوح مع أحد النوبيين، وكانت حجرة فقيرة ليس بها غير سرير وكنبة، ولم يكن بها حمام، غير طشت نقوم بالاستحمام فيه، وكان يذهب إلى عمله فى الصباح، وكنت أبقى فى الحجرة بمفردى، ففوجئت بإحدى الفتيات فى منزل مجاور تحاول التحدث معى بالإشارات، ثم فوجئت بها فى إحدى الأمسيات تأتى وتطرق الباب وتدخل وتجلس معى، وجاء فى هذا الوقت فؤاد حبشى ووجدنا معا، وبدأ يناوشها ولكنه قرر ضرورة نقلى من ذلك المكان».

(٢٨)

وهذه هى أكثر تجارب الهرب والاستخفاء خلودا فى ذاكرته، لما فيها من اختلاط الهرب بالعاطفة، وتعبير العاطفة عن نفسها بصورة رومانسية:

«وانتقلت إلى منزل فى مصر القديمة لأحد الأرمن، كان يقطن هناك مع أمه وأخته، وكان كمال عبدالحليم يزورنى أحيانا فى هذا المنزل، وبدأ يطلب منى الاستماع إلى أخبار الإذاعات الأجنبية، وإذاعة موسكو بالذات، وأن أكتب الأخبار المهمة لنشرها فى جريدة «الملايين» التى بدأت فى الصدور».

«سررت أنى أصبحت أؤدى عملا مفيدا، وإن كان لم يشبع كل رغباتى فى الحركة، والاتصالات، والعمل النضالى الذى كنت معتادا عليه، وعرفت هناك معلومات عن نشاط حركة السلام ونشاط الصحافة اليسارية فكنت أتحرق شوقا للمشاركة فى العمل، ولكننى لا أستطيع بسبب اختفائى وظروفى الأمنية».

«ظللت فى منزل هذا الأرمنى حوالى شهر، وتكونت بينى وبين أسرته روابط ألفة

وود، وكان أغلب الوقت أمضيه مع أخت مضيفى الأرمنية، وكنت شابا محروما من أى علاقات نسائية بعد فترة السجن، وبدأت تعتمل فى وجدانى بعض العواطف تجاه الفتاة، ولم أتصور أن تكون لى علاقات بالفتاة غير علاقات الزواج، وبعد تردد طويل وبدون أى مقدمات فاجأتها بعرض الزواج».

«وقد فوجئت بهذا العرض ولم تكن تعرف عنى أى شىء إلا أننى هارب من السجن، فرفضت بالطبع وقالت لى ما معناه إن مَنْ يعيشون مثل حياتى لا يجب أن يتزوجوا. كان عرضا رومانسيا من فتى رومانسى بعيد تماما عن الحياة والحسابات الواقعية».

«ويبدو أن الفتاة أخبرت أخاها بهذا العرض، ففى اليوم التالى أخبرنى أخوها أنه أحس ببعض المراقبات من جانب البوليس، وأخبر كمال بذلك، الذى رتب نقلى».

«وفى عشية انتقالى تناولت مع الأسرة طعام العشاء المعتاد، والذى كان يتكون من الجبن والزيتون والشاى، وقد لاحظت تأثر الأم وابنتها وقد سالت الدموع من عيونهما، وقالت لى إنهما اعتادتا على وجودى وسيكون الفراق صعبا».

«وقد كانت الأسرة تعد للسفر إلى أرمينيا السوفيتية مثل كثير من الأرمن الذين هاجروا وكانوا يتوقون إلى هذا اليوم، ولكنهم لم يسافروا، بل علمت بعد ذلك أن الأخ قد اعتقل عام ١٩٥٣ بعد قيام الثورة فى إحدى القضايا الشيوعية، وأنه قدم اعترافا كاملا».

(٢٩)

ونتنقل مع محمد يوسف الجندى إلى تجربة أخرى ذات طبيعة لا تقل خصوصية:

«... وقبل الانتقال إلى (مخبئى) الأخير رتب لى لقاء مع اخوتى فى منزل كان أخى قد استأجره فى الجيزة، وكان لقاء عاطفيا، إذ لم أكن قد رأيتهم منذ مدة طويلة، ولاحظت أن أخى صلاح قد كبر، أما أخى حسن فكان قد ترك تقريبا العمل الحزبى، وكان ارتباطى بأختى سعاد هو الأقوى، وقد استمر هذا الارتباط، فقد كانت هى الأكثر حرصا على الحفاظ على الروابط العائلية، خصوصا بعد أن تفرقت بنا السبل، وقد كانت أيضا تتعاطف معى فكريا، وكانت تتفهم أكثر الطريق الذى اخترته».

«والحقيقة أن السجن والإضراب وظروفى الصحية بعد الإضراب قربت كثيرا بينى وبين أخوتى وأسرتى، وأصبحوا ينظرون إلى الطريق الذى اخترته باحترام وتفهم بعد كل الخلافات السابقة، وأصبحوا ينظرون إلى اختيارى على أنه أمر واقع يجب أن يتقبلوه، وأن يساعدونى فى التغلب على المصاعب التى ألاقيها، سواء وافقوا على أفكارى واتجاهاتى أم لم يوافقوا، ولم يتغير هذا الموقف طوال حياتى بعد ذلك، بل ازداد عمقا، وقد تجسد ذلك فى علاقتى بأخى أحمد، فرغم أن اتجاهات كل منا اختلفت فقد استمرت علاقاتنا جيدة تقوم على الحب والاحترام فى كل الظروف».

«انتقلت إلى (مخبئى) الأخير فى الزمالك فى منزل أحد الضباط الأحرار وهو عثمان فوزى وزوجته دويدار، وكانت لهما طفلتان صغيرتان لم تتجاوزا الخامسة أو السادسة، من عمرهما، وقد اعتنيا بى عناية كبيرة، سواء من حيث الراحة أو الغذاء، وكان مستوى المعيشة أفضل كثيرا مما عشته فى المخابئ الأخرى، ولكنى فى هذه الفترة من حياتى كانت متطلباتى قليلة جدا، ولم أكن أشعر بأى ضيق من أى وضع أعيش فيه، وكانت الحياة الجديدة تمثل ترفا بالنسبة لى، وكنت أشعر بالحرج من هذه العناية المبالغ فيها».

(٣٠)

ويتأمل محمد يوسف الجندى فى أثر هذا الهرب كله على حياته، ويقدم وجهة نظره فى تحليل ما تكون أو تطور فى صفاته الشخصية التى ترتبت على هذه الحياة ويقول:

«. . . كان تكوينى وشخصيتى تغلب عليهما الرغبة فى القيام بالأعمال العملية أكثر من الدراسة والبحث، فكانت حياة الاجتماعات والاتصالات والتجنيد تستهوينى وتجتذبنى من الناحية المعنوية، وترضينى أكثر من الجلوس مددا طويلة للقيام ببحث أو كتابة مقال أو ترجمة كتاب، وقد يكون لتربيتنا الأولى فى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى أثر على ذلك، فقد كان دافعى الداخلى هو تقديم كل شىء، والتضحية بكل شىء من أجل العمل النضالى. احتياجاتى الشخصية هى أقل شىء عندى، وهى فى المرتبة الثانوية، ولم تكن لى احتياجات شخصية كثيرة. كل ما كنت أحتاج إليه هو أن آكل لأعيش وأنام وأسكن وأقوم بمواصلاتى، وألبس فى أقل الحدود. كانت أوضاعى الأسرية تسمح لى بحياة أفضل، لكن المتطلبات المعيشية الأخرى لم تكن تستهوينى».

«طبعا كانت لى كأى شاب احتياجات جنسية وعواطف تجاه الجنس الآخر، لكننى لم أكن أبذل أى جهد لتحقيق ذلك بطريقة طبيعية، وكان تكوينى الأسرى الشخصى وانشغالاتى النضالية تجعلنى لا أولى هذا الموضع الاهتمام الأول، رغم أنه كان يشغل بالى، وقد أعجبت بفتيات كنت أخجل من إقامة علاقات معهن، وكنت ألجأ فى النهاية إلى العروض المباشرة بالزواج دون مقدمات، وقد أعجبت فى دار الأبحاث العلمية بفتاة من سنى كانت تدرس فى كلية الآداب، وفكرت فى التقدم للزواج منها، ولكن خجلى كان يمنعنى، وذات مرة ودون مقدمات عرضت الزواج على لطيفة الزيات، ولم أعرضه بشكل مباشر، ولكن عن طريق أحد أصدقائى، فقالت بلطف إنها مرتبطة، ثم عرض علىّ حمدى عبد الجواد فى مرة أخرى أن يزوجنى فتاة فلاحة من ميت يعيش وذهبت معه إلى القرية وقابلنا الفتاة وأهلها، وكانوا فى غاية الفرح، ولكنها لم تعجبنى شكلا، ولم يهمنى فى ذلك الوقت كونها فلاحة أو أنها فى غير مستوى من الناحية الاجتماعية أو الثقافية».

«وقد أثرت علىّ كثيرا الحياة السرية وحياة الاختفاء، فقوت فىّ الاتجاه الانطوائى، والابتعاد عن الظهور، ومن ناحية أخرى كان لتوجه «حدتو» العملى والنضالى تأثير علىّ، وأصبحت أهمل إلى حد كبير العمل الفكرى والثقافى الذى يحتاج إلى جهد مكتبى كبير».

(٣١)

ثم يتأمل محمد يوسف الجندى تأثير أدبيات الماركسية المحتمل على تفكيره فى هذه الناحية فيقول:

«ويبدو أن بعض الاتجاهات التى تعتبر المثقفين بورجوازيين، وتعطى الأفضلية للعمال أو البروليتاريا، وهو الأمر الذى كان شائعا فى توجهات بعض الحركات الشيوعية فى العالم، وفى بعض ممارسات البلاد الاشتراكية، كان له تأثير أيضا على تكوينى».

«ولولا ذلك لكان فى إمكانى أن أستفيد من فترة الاختفاء فى الاطلاع، والبحث والكتابة، ولكان فى ذلك إشباع معنوى لى، ولكن ذلك لم يتم إلا بشكل ضئيل، فقد

قمت بترجمة بعض أعمال ماو تسى تونج (الزعيم الصينى) وغيرها، وكنت أكتب الأخبار (المهمة) التى تبثها الإذاعات الأجنبية لجريدة «الملايين»، وقرأت بعض الكتب، ولكنى مع ذلك كنت أحس أننى بعيد ومنعزل عن الكفاح الحقيقى، وكان ذلك يؤثر على معنوياتى، فكانت هذه الحياة تختلف عن الحياة المليئة بالعمل والسفر والاتصالات ومواجهة المخاطر التى كنت أعيشها قبل اعتقالى».

(٣٢)

ونأتى إلى قصة هربه بالسفر إلى الخارج، التى تتوج مراحل هروبه واغترابه فى داخل وطنه، وتطلعنا هذه القصة على كثير من تفصيلات علاقات الشيوعيين المصريين بالشيوعية الدولية، والدور الذى كان البمبوطية المصريون يقومون به، والدور المقابل الذى كان البحارة الفرنسيون يقومون به أيضا، وهو فى تصويره للحظات الحرج التى عاشها فى قاع المركب يبدو فزعا، لكن ربما أنه لا يعرف أن الجيل الجديد من شباب مصر الذين يحاولون الهرب من أجل لقمة العيش يعيشون الآن تجارب أكثر صعوبة ومرارة من تجربته هذه:

«... سافرت مع عثمان فوزى بسيارته إلى بورسعيد، وعشت فى شقة أحد الزملاء، ثم انتقلت إلى كابينة على البحر، وجاء كمال للقائى، وكان قد تم الاتفاق مع اثنين من البمبوطية بأن أصعد إلى إحدى البواخر الفرنسية اتفقا مع اثنين من بحارتها الفرنسيين مقابل مبلغ من المال، وفى اليوم المحدد صعدت إلى الباخرة مع ثلاثة آخرين، اثنين من البامبوطية فضلا عن كمال، وأعطى البامبوطى زجاجة من العطور إلى الضابط الذى كان يقف على سلم الصعود وسلمونى إلى أحد البحارة الفرنسيين الذى قام بإنزالى إلى قاع المركب. الثلاثة الآخرون غادروا المركب. كان قاع المركب مكانا مظلما مضاء بلمبة كهربائية، ومليئا بقماش تندات، وكان القاع يقع تحت المكان الذى يسكن فيه البحارة، وكان يتم النزول إليه بسلم صغير يغلق بعد نزولى بحيث يصبح السقف فى مستوى الأرض. لم يكن معى أى حقائب، وكنت ألبس عدة ملابس فوق بعضها، واتفق معى البحار الفرنسى بألا أخرج من هذا المكان لمدة خمسة أيام حتى تتحرك المركب من الإسكندرية، وكان خط سير المركب هو بورسعيد-بيروت

ـ حيفا ـ الإسكندرية ثم إيطاليا ـ مرسيليا، وكان علىّ أن أبقى طوال المدة حتى مغادرة الإسكندرية فى قاع المركب، وبعد ذلك يمكن مغادرتها للتجول يوميا نصف ساعة على سطح المركب، وكان يأتينى بطعام فاخر، وكان عندما ينزل إلى يقول لى: مع الصبر تحقق الهدف».

«مكثت فى قاع المركب تنتابنى الأفكار المختلفة والقلق من أن ينكشف أمرى، وقامت المركب ووصلنا إلى بيروت، ثم ذهبنا إلى حيفا ثم الإسكندرية، وأمضت المركب يوما كاملا فى الإسكندرية كنت أثناءها فى غاية القلق أن ينكشف أمرى، ومكثت فى قاع المركب أعد الثوانى والدقائق إلى أن بدأت أسمع أصوات المحركات، ثم بدأت أرتاح عندما أخذت المركب تهتز ثم سارت أخيرا، وأحسست كأن عبئا ثقيلا قد انزاح من على صدرى، وأصبحت فترات نزهتى على سطح المركب تطول قليلا، وكان ذقنى قد طال، وقررت أخيرا أن أذهب إلى الحلاق ليحلق ذقنى».

(٣٣)

ثم هو يتحدث عن خروجه من البحر إلى البر، وكيف رأى فى فرنسا صورا من الرشوة وتصريف الأمور بالمال لم يكن يتصور وجودها على هذا النحو:

«... مكثنا فى البحر حوالى اثنى عشر يوما واقتربنا من مرسيليا، وقال لى البحار: إنه عندما تتوقف المركب فى مرسيليا سأبقى فى مكانى عدة ساعات إلى أن يخرج جميع الركاب، وسأخرج معه وإذا سألنى أحد فأنا ابن عمه، وكانت جوازات السفر تجمع من جميع الركاب وتختم ويخرجون بعد ذلك تباعا، ولم يكن معى جواز سفر أو أى أوراق، ولهذا قرر البحار أن أخرج معه بعد فترة من خروج كل الركاب».

«وعندما حان وقت خروجنا دعانى البحار، كنت ألبس ملابسى كلها فوق بعضها من غير معطف، وكان معى قفاز من الجلد أعجب به البحار واستولى عليه».

«نزلت سلم الباخرة مع البحار وهو يوزع تحياته يمينا ويسارا، ولم يستوقفنى أحد، وركبنا سيارة تاكسى، وعند الجمرك استوقفونا وظهر أن البحار لا يهربنى وحدى وإنما يهرب سجائر أيضا، ولكنه حل المشكلة بأن أعطى موظف الجمرك علبة من السجائر

وتركنا نمضى، وكانت هذه أول تجربة لى فى فرنسا، وأدهشنى أن تكون الرشوة بهذا السفور فى هذا البلد المتقدم».

«أوصلنا التاكسى إلى منزل البحار، ثم توجهت إلى محطة السكة الحديد، وهناك اشتريت تذكرة إلى باريس».

(٣٤)

وها هو لقاؤه الأول بباريس يأتى فى ظل انشغاله بخوفه وبحالة هروبه فلا نكاد نحس أن صاحب المذكرات قد دخل إلى مدينة النور:

«كنت أشعر بفرح شديد لوصولى إلى باريس، وأحسست أننى هناك يمكن، بعد فترة طويلة من السجن والهرب، أن أشعر بالحرية والانطلاق والقدرة على العمل، ولكننى كنت واهما كما تبين لى من تجربتى بعد ذلك».

«لقيت شريف حتاتة، الذى جاء إلى باريس قبلى بثلاثة شهور، أمضيت الليل عند الأسرة، وفى اليوم الثانى التقيت يوسف حزان وكنت أعرفه من القاهرة، وعندما رآنى، وكنا فى شهر يناير، قال لى: كيف أمشى من غير معطف؟ قلت له: إننى ألبس ملابس كثيرة، قال: ولكن سيرك هكذا فى هذا الوقت غريب وشاذ فلا أحد يسير بدون معطف فى الشتاء، وقد يشتبه فيك البوليس ويقبض عليك ويسأل عن أوراقك، ولم تكن معى أى أوراق، وذهب معى على الفور لشراء معطف».

(٣٥)

ويعبر محمد يوسف الجندى عن إحساسه الشديد بالأيام الأولى من هجرته فى باريس، إلى درجة أنه يوحى بأن حياته فى السجن كانت أرحم من حياته فى الهجرة، ويبدو أن هذا الإحساس الذى انتاب محمد يوسف الجندى وسيطر عليه قد تضاعف بسبب مقارنته حاله بحال زميله شريف حتاتة، الذى كان قد سبقه إلى فرنسا، فضلا عن أنه كان أكثر منه تأقلما مع المجتمع الغربى بسبب تربية والدته الإنجليزية وما تعلمه منها على مدى عمره:

«وبعد وصولى بقليل، وخصوصا قبل قدوم كوريل، بدأت أحس بوطأة الهجرة،

فبعد الفرحة فى الأيام الأولى، بدأت أحس بأننى فى سجن آخر، فكانت الحياة غريبة عنى وأنا بعيد عن النشاط فى مصر، وأحسست بالانعزال الشديد، وخصوصا أننى لم أكن أستطيع الاندماج مع الحياة الفرنسية لأنه لم تكن لدى أوراق، فكنت أعيش هناك أيضا بشكل غير شرعى».

«وأحيانا كنت أشعر أن الحياة فى السجن مع زملائى كانت تحقق لى إشباعا أكثر من حياة الهجرة، وأحسست بالغربة الشديدة، أما شريف فكان أكثر تأقلما، فتكوينه أوروبى إلى حد ما، فوالدته إنجليزية، وكان يتقن الإنجليزية والفرنسية، وكان يسكن فى غرفة فى شارع فرساى، واشترى آلة كاتبة، وكان يمضى أغلب وقته فى الكتابة، وهو يتسم بالتنظيم الشديد فى وقته وعمله، وقال: إنه تعلم ذلك من والدته الإنجليزية التى قال لى إنها كانت طوال وقتها فى المنزل ترتب وتنظم كل شىء».

(٣٦)

وها نحن نرى محمد يوسف الجندى وهو يعيش تجربة الهرب فى فرنسا بعد أن حكم عليه بالسجن ٥ سنوات، وقد نجح فى الوصول إلى باريس والبقاء فيها، لكن قدره يسوقه إلى الاعتقال.

ويحكى محمد يوسف الجندى قصة اعتقاله فى باريس، فنشعر بالتعاطف معه لأنه ساعد على الإيقاع بنفسه على نحو ما ساعد من قبل على الإيقاع بها فى القاهرة:

«. . . وكانت فرنسا تضم عددا كبيرا من الجزائريين والمغاربة والتونسيين، وتجمعهم روابط مختلفة، وقررت إحدى هذه الروابط عقد اجتماع فى إحدى الصالات الكبيرة للتضامن مع نضال الشعب المصرى ضد الاستعمار البريطانى، وأصدر البوليس الفرنسى أمرا بمنع هذا الاجتماع وحاصر البوليس محطات المترو من «محطة اتوال» عند قوس النصر، حتى محط «باسى»، ووقف البوليس عند مخارج كل محطة يستوقف كل مَنْ كان لونه يميل إلى السمرة ويبدو عليه أنه من أبناء المغرب فى شمال إفريقيا، ويسأله عن أوراق إثبات الشخصية، ونزلت من المترو مع أحد الأصدقاء فى محطة «تروكاديرو»، وعند الخروج وجدنا البوليس يحاصر المحطة، وسألنا عن تحقيق

الشخصية، أبرز صديقى هويته فتركوه، أما أنا فلم يكن معى تحقيق شخصية فأركبونى البوكس».

«بقيت فى مركز البوليس أربعة أيام، يحاول رجال التحقيق من المباحث انتزاع أقوال منى، أما أنا فالتزمت الصمت تماما، والسبب فى ذلك نصيحة قدمت لى ولشريف حتاتة قبل اعتقالى بعدم التحدث أمام البوليس أو النيابة، والمطالبة بالعرض فورا على قاضى التحقيقات، وبخلاف الوضع فى مصر فالنيابة فى فرنسا هى سلطة اتهام، أما التحقيق فيقوم به قاضى التحقيق، والسبب فى هذه النصيحة التى قدمها لنا ممثلو هيئة لها علاقة بالحزب الشيوعى الفرنسى واسمها «المعونة الشعبية»، أنه يمكن للبوليس أو النيابة بعد سماع أقوالى أن يطردونى من فرنسا، أو يسلمونى إلى مصر دون العرض على قاضى التحقيق، أما قاضى التحقيق فهو ملزم بمتابعة الإجراءات القانونية وتقديمى إلى المحاكمة».

(٣٧)

وهو يحدثنا بهدوء وثقة عن تجربته مع البوليس الفرنسى:

«وبدأ رجال البوليس يسألوننى عن اسمى، وأوراقى، ومتى جئت إلى فرنسا، وأسباب مجيئى، فكان جوابى الوحيد هو «لن أتكلم إلا أمام قاضى التحقيق»، واستفز أحد المحققين من البوليس فلكمنى فى بطنى وقال لى: «ماذا تظن.. أنت هنا فى فرنسا»، وكنت أظن أن هذه الأساليب لا تستخدم فى فرنسا، فازددت إصرارا على رفض الكلام، وأخذونى فى سيارة وجالوا بى فى عدة أحياء فى باريس لأدلهم على سكنى، ولكننى لم أقل شيئا، وكانت معى بعض الصحف المصرية (الأهرام وغيره)، وجاءوا بشخص يعرف العربية، وحاول بغباء شديد أن يجد فى هذه الصحف أدلة ضدى، وكذلك وجدوا معى جريدة «الأماونيتيه» فحاول أيضا أن يعتبرها دليلا ضدى، ولكننى التزمت الصمت ورفضت الحديث إلا أمام قاضى التحقيق».

على هذا النحو كان محمد يوسف الجندى يتلقى معونات شيوعية على هيئة دفاع جاهز وعلى هيئة نصائح قيمة ساعدته على البقاء فى فرنسا بطريقة كفلت له الانطلاق إلى آفاق أخرى، ومكنته من عدم العودة إلى مصر:

«وبعد أربعة أيام حولت إلى قاضى التحقيق، وأمام مكتبه وجدت المحامى إمبلار الذى وكلته هيئة «المعونة الشعبية» للدفاع عنى، وذلك بجهود زملائنا فى باريس، أبلغنى تحية الزملاء والأسرة، وقال: إن خطته أن أبقى فى السجن إلى أن تنجح مساعى الحزب الشيوعى الفرنسى فى ذهابى إلى أحد البلاد كلاجئ سياسى، ولهذا فهو يرى أن ليس من المصلحة الإسراع فى إنهاء التحقيق والتقدم للمحاكمة، لأنه يتوقع أن تصدر المحكمة ضدى حكما بالغرامة أو بالحبس عدة أيام وعند الإفراج عنى سأقع فى يد البوليس الذى سيصدر ضدى أمرا بالطرد أو التسليم إلى الحكومة المصرية، وقال لى: إن المساعى تتركز الآن على أن أذهب إلى فيينا للعمل فى اتحاد النقابات العالمى، وأن هذا سيحتاج إلى بعض الوقت».

«ودخلت إلى قاضى التحقيق فتكلمت أمامه ورويت له القصة كلها، وهو أننى هارب من مصر من حكم بالسجن خمس سنوات فى قضية رأى «قضية شيوعية»، ولأننى لم أستطع استخراج جواز سفر من مصر فقد دخلت فرنسا خلسة وبدون أوراق، وطلبت منحى حق اللجوء السياسى فى فرنسا، وشكوت له حادثة اعتداء أحد رجال البوليس علىّ بالضرب وهو يحقق معى، وقابل القاضى ذلك باستخفاف، وقال: لو كنت ابن سفير مثلا لما اعتدوا عليك، ولم يعر ذلك اهتماما، وأمر بحبسى إلى حين المحاكمة».

«ونقلت إلى سجن يسمى «لاسانتى» أى «الصحة»، وكانت أول خبرة لى بسجون فرنسا، وسكنت مع مجرمى القانون العام».

(٣٨)

ويحدثنا محمد يوسف الجندى عن تقييمه لتجربته فى السجن الفرنسى فنفاجأ بشعور الغربة ينتابه بشدة حتى إنه يعتبر سجون فرنسا أقسى من سجون مصر مقدما أسبابا لا تبرر مثل هذا الحكم الذى لم يصدر إلا عن شعوره بالغربة:

«كانت فترة السجن فى فرنسا شديدة القسوة، أشد قسوة من السجون فى مصر لعدة أسباب:

«١ ـ أننى لم أكن أعرف إلى أى شىء سينتهى هذا الحبس».

«٢ ـ أننى كنت بعيدا عن الوطن».

«٣ ـ كنت مع مجرمى القانون العام، وهم ليسوا بطيبة مجرمى القانون العام فى مصر، والذين كانوا يحترموننا ويشملوننا برعايتهم ويقدمون لنا المساعدات حينما نكون معهم».

. . . . . .

. . . . . .

(٣٩)

وقبل هذا يصور محمد يوسف الجندى بعض مظاهر هذه القسوة فيقول:

«وفى أحد الأيام جاءت خبيرة اجتماعية للتعرف على أحوال النزلاء ومشاكلهم، واستدعونى لمقابلتها، وسألتنى عن تهمتى فقلت لها إنى شيوعى، وإنه حكم علىه بالسجن فى مصر بهذه التهمة، فقالت لى مكذبة ما معناه «العب غيرها، فمصر كلها شيوعية من القمة إلى أخمص قدميها»، وكانت الصحف الفرنسية كلها تبرز فى صفحاتها الأولى أخبار الكفاح المسلح فى القنال، وإلغاء حكومة النحاس باشا لمعاهدة ١٩٣٦، والصدام مع قوات الاحتلال البريطانى، وكانت الصحف الموالية للاستعمار لا تفرق بين النضال ضد الاستعمار والشيوعية».

«وبعد شهرين استدعيت للمحاكمة ولم تكن المساعى لسفرى إلى بلد آخر قد نجحت بعد، فطلب المحامى إمبلار التأجيل، وفى مداولته معهم قبل الجلسة تعجبت المحكمة وقالت له: إنه سيفرج عنى، فقال لهم: إنه يخشى أن أقع فى أيدى البوليس فيطردونى، فقالوا: هذا يذكرنا بأيام الاحتلال الألمانى حيث كان المحامون يطلبون طلبات مماثلة حتى لا يقع المتهمون فى أيدى الجستابو، فقال لهم إمبلار: هذا مع الفارق».

(٤٠)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن خروجه من فرنسا إلى المجر على نحو ميكانيكى لا نشعر فيه بشوق إلى المجر وما فيها، ولا أسف لترك باريس وما فيها، وربما

كان عذره فى هذه الميكانيكية أن هذه الفترة ارتبطت بمسئوليته غير المباشرة عن القبض على زميله شريف حتاتة الذى ذهب لمقابلته ولم ينتبه إلى حقيقية بديهية وهى أن محمد يوسف الجندى كان تحت المراقبة :

« . . . وبعد ثلاثة أشهر لم تنجح المحاولات فى ذهابى إلى فيينا ، ولكنى عرفت من المحامى إمبلار أن المجر قبلت ذهابى إليها لاجئا سياسيا ، وأننى سأعمل فى اتحاد الشباب الديمقراطى العالمى»

«وحددت جلسة المحاكمة ، وكان الحرس يتهامسون حولى بأننى جاسوس ، وجاءت المحكمة ، لم يترافع إمبلار واكتفى بالقول بأن موكلى حصل على حق اللجوء السياسى فى جمهورية المجر الشعبية ، فابتسم القضاة وأصدروا حكمهم بالحبس ١٥ يوما لدخول البلاد بدون أوراق ، وكنت قد أمضيت بالفعل ثلاثة أشهر ، فأفرج عنى» .

«خرجت من السجن ، وبدأت إجراءات الإفراج عنى ونقلت إلى إدارة الشرطة وسار معى فى الطريق أحد المفرج عنهم الأتراك يجمع أعقاب السجائر من الطريق طوال سيرنا ، وأنهيت إجراءات الإفراج وأصدروا أمرا بطردى من الأراضى الفرنسية وأعطونى مهلة أسبوعا وأعطونى ميعادا آخر لتسلم جواز المرور لأخرج به» .

«وخرجت من إدارة الشرطة إلى الحرية ، وكان زملائى قد حجزوا غرفة فى أحد الفنادق فى الحى اللاتينى ، وأخذت فى ترتيب سفرى إلى بودابست ، وذهبت إلى اتحاد الشباب الفرنسى الذى أعطونى تذكرة إلى بودابست ، وسألنى أحد المسئولين الشباب هناك إن كان معى نقود مجرية؟ فقلت : لا ، فأعطانى بعض الفلسات القليلة» .

«وذهبت إلى إدارة الشرطة واستلمت جواز المرور ، وكنت قد اتصلت تليفونيا بشريف حتاتة واتفقنا على اللقاء فى إحدى صالات الشاى ، وخرجت من إدارة الشرطة وذهبت إلى الموعد ، وكانت معه خطيبة أحد الأصدقاء الذين كنت أعرفهم من مصر وهو روبير ستون ، وزميل آخر ، وكان لقاء حارا ، وجلسنا فى صالة الشاى نتحدث عن الذكريات وتجربتى فى السجن ، ومشاريعى المقبلة ، وتركتهم مودعا ،

وقبلتهم، وذهبت إلى الفندق، وبعدها بفترة اتصل بى يوسف حزان وقال لى إن شريف حتاتة قبض عليه بعد أن انتهى لقاؤنا، وظهر أننى كنت مراقبا عند خروجى من إدارة الشرطة، وقد قبض البوليس على الثلاثة ولكنه أفرج عن خطيبة روبير وعن الزميل الآخر بعد أن قدما أوراقهما، أما شريف فقد احتجزوه، عندما عرفت الخبر أصبت بإحباط شديد وانقلب الفرح بالإفراج عنى إلى حزن وإحساس بالبلادة الشديدة بحيث إننى ذهبت إلى الفندق ونمت فى حوالى الساعة الواحدة ظهرا ولم أستيقظ إلا فى صباح اليوم التالى».

«وحدثنى حزان وقال لى: إنه أصبح فى موقف حرج للغاية أمام المسئولين فى مكتب المستعمرات بالحزب الشيوعى الفرنسى، وإنه التقى بليون فاكس، وإيلى مينيون وتعاملوا معه كمتهم، وهاجموه بشدة لهذا الإهمال، وظل يلازمنى الشعور بالإحباط بعد ذلك لفترة حتى بعد وصولى إلى بودابست، وقررت ألا ألتقى بأحد بعد ذلك فى باريس».

(٤١)

ويلخص محمد يوسف الجندى تجاربه فى أثناء الفترة التى قضاها فى المجر فى فقرات لاهثة، نحس فيها بما كان يشعر به من غربة على الرغم من وجوده بين مَنْ يشاركونه العقيدة الشيوعية، لكنهم، شأنهم شأن الشيوعيين، كانوا يعبرون عن الانقسام والاختلاف بصور صارخة، وربما فظة، ولعل نموذج حديثه عن واصل فيصل ويوسف فيصل وخالد بكداش يصور لنا هذه المعاناة الحقيقية التى عاشها محمد يوسف الجندى مبكرا وأصبح يتذكرها كلما حدث انقسام مماثل بين مَنْ كانوا شيئا واحدا:

«... وكنت أتصور أن أجد جميع المجريين يحبون الاشتراكية، وأنهم جميعا شيوعيون، وبدأت شيئا فشيئا أرى الحقائق، وأرى السلبيات إلى جانب الإيجابيات، ولم تجعلنى السلبيات أفقد الثقة بالتجربة، ولكننى كنت أحاول أن أجد التبريرات لها».

. . . . . .

. . . . . .

«وكان من الطبيعى أن تكون لى علاقات أوثق بالسورى باعتباره عربيا، وكان اسمه مازن، وعرفت بعد ذلك أنه ليس اسمه الحقيقى، وإنما اسمه واصل فيصل، وهو شقيق يوسف فيصل الذى أصبح الآن أمينا عاما للحزب الشيوعى السورى، وأذكر فى ذلك الوقت أن جاءنى مازن بعدة صور لخالد بكداش، وقال: إن أخاه أرسلها له من براغ لأعطيها لزملائى المصريين، وكان يوسف فيصل يعمل وقتها مندوبا للطلبة السوريين فى اتحاد الطلبة العالمى الذى كان مقره فى براغ، ولم أوصل الصور لأحد بالطبع، فلم يكن خالد بكداش يمثل بالنسبة لنا شيئا».

«وقد حكى لنا إبراهيم عبد الحليم مرة أنه كان فى زيارة لبراغ لحضور اجتماع اللجنة التنفيذية لاتحاد الطلبة العالمى فالتقى بيوسف فيصل الذى قال له: «ما أخبار الجاسوس الصهيونى هنرى كورييل»؟ فاستفز إبراهيم عبد الحليم وكان سليط اللسان فقال: «وما أخبار الجاسوس الاستعمارى خالد بكداش»؟ ففوجئ يوسف فيصل ولم يستطع مواصلة الحديث».

«أتذكر تلك الأحداث الصغيرة، كلما سمعت اليوم عن الانقسام الذى حدث فى الحزب الشيوعى السورى، والصراع الذى كان بين يوسف فيصل وخالد بكداش».

(٤٢)

لكننا نلاحظ أن الشغل الشاغل الذى ظل يؤرق محمد يوسف الجندى فى المجر كان هو اعتقال زميله شريف حتاتة، وشعوره بالإحساس بالذنب فى مسئوليته عن هذا الاعتقال:

«... كان وصولى إلى المجر فى مارس ١٩٥٢، ومنذ وصولى وأنا تحت تأثير اعتقال شريف، وأوصانى زملائى بأن أبذل جهودى للسماح لشريف بالمجىء إلى المجر، أو أى بلد اشتراكى آخر، وقمت ببعض الاتصالات، ولكن دون جدوى، أما المسئولون فى الحزب الشيوعى الفرنسى فرفضوا بذل أى جهد فى هذا الاتجاه، وعرفت بعد ذلك أن شريف أفرج عنه بعد فترة وأعطى فترة لترتيب خروجه من فرنسا وعاد سرا إلى القاهرة، لكنه اعتقل بعد ذلك فى قضية جديدة سنة ١٩٥٣ بعد الثورة وحكم عليه

بالسجن عشر سنوات أمضاها بالكامل، واستمر معى الإحساس بالذنب ولم أستطع التخلص منه، ولم يطغ عليه إلا تطور الأحداث بعد ذلك».

(٤٣)

على أن محمد يوسف الجندى يصدقنا القول بقسوة غربته فى المجر إذا ما قورنت بغربته فى باريس، ولا أظن حديثا إنسانيا قادرا على أن يصور مثل هذا الشعور مثل حديث ذلك المريض الذى يعانى المرض والخوف من الموت، واختلاف التشخيص مرة بعد أخرى من آلام فى الصدر، إلى اشتباه فى مرض القلب، إلى الحمى الروماتيزمية، إلى الآلام الروماتيزمية، إلى زيادة نشاط الغدة الدرقية، والشعور بالشفاء الجزئى، لكنه فى الوقت نفسه ينزعج من فكرة الموت بعيدا عن الوطن:

«. . . كانت فترة الضغوط النفسية علىّ فى آخر فترات عملى فى الاتحاد إلى جانب برودة الشتاء الذى لم أكن مستعدا له، سببا فى مرضى (هكذا يشخص المريض سبب مرضه ثم هو يعود إلى ذكر أسباب أخرى يكشفها كلما تم عرضه على الأطباء)، وكان الجو فى المجر فى الشتاء أكثر قسوة منه فى باريس، وكان من الضرورى أن أستعد له بأحذية دافئة، ومعطف ثقيل، وكنت أظن أن الطريق لمواجهة برد الشتاء هو ملابس داخلية من الصوف التى لم تكن تساعدنى لأن الأماكن المغلقة كانت دافئة فأشعر بالحر الشديد، ثم أخرج إلى الشارع والبرد الشديد بنفس الملابس تقريبا، ولم أكن قد تدربت بعد على التعامل مع هذا الجو، وبدأت أشعر بآلام شديدة فى صدرى، ذهبت إلى الطبيب، وذهبت معى «يودكا» لتساعدنى فى الترجمة، كشف علىّ الطبيب وقال: إنه القلب، وقد سبق أن تحدثت عن عقدة «القلب» الذى مات به أبى وأمى فأصابتنى حالة من الفزع والاكتئاب الشديد، وأحسست أن أيامى قليلة، وكانت فكرة أن أموت بعيدا عن الوطن تزعجنى. ساعدتنى يودكا كثيرا فكانت تذهب معى للفحوص فى المستشفى، وكانت تخفف عنى».

«كانت الرياضة البدنية مادة إجبارية على الطلبة، فحصلت على إذن من الطبيب على عدم القيام بها بسبب مرض القلب، وبدأت الدراسة والانتظام فيها يتعبنى رغم اجتهادى وحماسى فى البداية، وازداد إحساسى بعدم القدرة على العمل والدراسة،

وزاد الطين بلة أنى فى أحد الأيام أحسست بألم وورم فى مفصل يدى اليمنى، ونصحتنى يودكا وأمها أن أذهب إلى طبيب مدفوع الأجر رشحناه لى، فقال لى: إنها حمى روماتيزمية وإننى يجب أن أمكث فى السرير، وكتب بنقلى إلى المستشفى».

«كلفت المدرسة العليا أحد الطلبة بمرافقتى إلى المستشفى حيث أجريت مختلف الفحوص ووضعونى فى أحد العنابر مع الرجال العواجيز الذين تعدوا الستين، وعندما رآنى كبير الأطباء قرر نقلى على الفور إلى عنبر أكثر شبابا، وكان الطبيب المعالج يتكلم إنجليزية ضعيفة، فلم أكن أعرف بالضبط حقيقة مرضى. كان الطبيب الخارجى قد كتب لى أقراصا حمراء ضد الحمى الروماتيزمية، وقد سببت لى طنينا مستمرا فى أذنى، مما زادنى وهما، وبعد قليل أوقفوا فى المستشفى تلك الأقراص خصوصا بعد أن اختفى الورم من يدى، فاختفى الطنين من أذنى وبدأت أشعر ببعض التحسن، وكتبوا لى أقراصا أخرى».

(٤٤)

وهو يحاول أن يرتب ما يذكره عن تاريخه أو تجربته مع المستشفى والأمراض والتشخيصات:

«وبعد أيام قالوا لى إنه ليست عندى حمى روماتيزمية، وإن كان هناك بعض الآلام الروماتيزمية، أما القلب فليس به مرض عضوى، ثم قالوا إن هناك زيادة فى إفرازات الغدة الدرقية، وأنها السبب فى مختلف الأعراض التى أشعر بها، وثارت قضية احتمال إجراء عملية لى، وسألت الطبيب المعالج: متى يجرون العملية؟ فضحك وقال: لماذا تستعجل العملية؟ وأعطونى أدوية تشتمل على اليود، وأدوية أخرى للأعصاب، وأوصوا بأن أذهب فى الصيف إلى المصحة لعلاج الغدة الدرقية والأعصاب».

«كانت تجربتى فى المستشفى جديدة، فلأول مرة أعيش مع مرضى وممرضات لا يتكلمن غير المجرية، فأضطر للتفاهم معهم بالمجرية، وكان على يمينى فى عنبر المستشفى الذى كنت أقيم فيه شاب مجرى حدثنى عن تجاربه عندما وقع فى الأسر فى

الاتحاد السوفيتى، وكيف دخل السجن وعاش مع مسجونين روس يعادون ستالين، وتحدث أيضا عن معيشته فترة فى روسيا بعد الإفراج عنه، وتحدث عن النساء الروسيات وكيف أن لهن صدورا ذات أحكام كبيرة، وتجاربه معهن، وجرت ألفه بينى وبين المرضى الآخرين».

«وفى أيامى الأولى كنت أشعر بحرارة شديدة، وبعرق غزير، فشكوت للطبيب وكانت معه الممرضة، فابتسمت ونزعت عنى الملابس الصوفية الداخلية التى كنت ألبسها، وبعدها لم أعد أشعر بحرارة أو أعرق».

«كانت يودكا (هى صديقة له) تزورنى وتلبى طلباتى فى المستشفى، وكذلك زارنى بعض زملائى وزميلاتى فى الدراسة، وساعدنى هذا الجو على أن تتحسن حالتى، وكتب لى الطبيب بعد حوالى أسبوع بالخروج من المستشفى على أن أستمر فى تناول الأدوية التى كتبوها لى، وأن أذهب فى الصيف إلى المصحة».

(٤٥)

ثم ينتقل محمد يوسف الجندى بنا إلى لحظة كاشفة من لحظات إقامته فى المجر، ومع أنها لحظة خاطفة فإنها جعلته يستعيد سعادته وذلك عند لقائه بأهل وطنه، بل إنه يتحدث عن إحساسه بالشفاء عند رؤيته لهؤلاء:

«. . . وفى يوم من الأيام جاءتنى زيارة من شخصيات عزيزة من مصر والسودان هم السيدة سيزا نبراوى، والسيدة زوجة يوسف حلمى، وأنور مقار، ومحمد إبراهيم نقد الذى أصبح الآن السكرتير العام للحزب الشيوعى السودانى، كانوا فى جولة بالمجر فاتصلوا بيودكا التى كان رقم تليفونها لدى زملائنا فى فرنسا، وأوصلتهم يودكا إلىّ».

«وعندما رأيتهم أحسست أن كل الأمراض التى أشعر بها ذهبت عنى واختفت، قضوا معى اليوم واقترحوا علىّ أن أذهب معهم إلى مؤتمر فى إحدى المدن المجرية وأعود معهم إلى بودابست، ذهبت إلى الطبيب وطلبت منه الإذن، فوافق على الفور وسمح لى بمغادرة المصحة بشكل نهائى، وقال لى: إننى لا أحتاج إلى علاج آخر فى

المصحة، وإن حالتى جيدة، وإن كان علىّ أن أستمر فى تعاطى الدواء الذى كتبه لى لفترة من الوقت».

. . . . . .

. . . . . .

وهو لهذا يصل إلى اكتشاف سبب نفسى فى أمراضه التى مر بها:

«ويبدو أن سببا أساسيا لمرضى كان العزلة والغربة عن الوطن، وعند مجىء هذا الوفد لزيارتى، أحسست بأن قطعة من الوطن جاءت لزيارتى، وأحضروا لى معهم رسالة تشجيع وتقدير من اللجنة المركزية لحدتو، كان لها تأثير السحر علىّ، وساعدت على شفائى الكامل».

«أحسست أن رفاقى فى مصر والسودان مهتمون بى رغم بعدى عنهم، وأنهم يحتاجون إلىّ، وقررت أننى يجب أن أتغلب بل وأقضى بإرادتى على كل الأمراض».

(٤٦)

ويلخص محمد يوسف الجندى أكثر من تجربة من التجارب التى ارتبط فيها بعلاقة بالجنس الآخر فنجد فى أسلوب رواياته للتجربة بعد الأخرى ما يدل على أن شبح عقيدته الشيوعية والإنسانية كان كفيلا بأن يفسد عليه آليات الحب والعاطفة المنطلقة، وهو على سبيل المثال لا يواصل علاقته مع «بالما» بسبب ميلها إلى انتقاد السوفييت والاشتراكية، وحرصها على دعوته إلى الكنيسة:

«. . . تعرفت فى السنة الثانية على فتاة مجرية فى قسم اللغة الألمانية اسمها «بالما»، وترجمتها بالعربية «نخلة»، ولم تكن تعرف غير المجرية، وكانت تدرس الألمانية، ولم أكن أعرف شيئا من الألمانية، فاضطررت للحديث معها بالمجرية فساعدنى ذلك على أن أحرز بعض التقدم فى اللغة، وكانت فتاة تمتلئ حيوية ونشاطا وكثيرة الكلام، وكنا نخرج معا للنزهة فى الغابات المجرية الجميلة، ورغم معرفتى الضئيلة باللغة المجرية فقد تكلمنا فى مواضيع مختلفة بما فيها المواضيع السياسية، فعرفت منها أنها تكره النظام الاشتراكى فى المجر، وتهاجم السوفييت، وتقول إنهم استولوا على أرض من المجر بعد الحرب العالمية الثانية، وكنت أناقشها وأدافع عن الاشتراكية وعن النظام الاشتراكى

فى المجر، وكانت تحب التردد على الكنيسة أيام الآحاد، وتحاول دعوتى إلى هناك تغرينى بالموسيقى الجميلة التى تعزف فى الكنيسة».

«ولم تستمر لقاءاتنا كثيرا، فقد كان هناك عائق اللغة، فضلا عن أننا لم نتفاهم سياسيا».

(٤٧)

وفى هذا الإطار نفسه فإن محمد يوسف الجندى ينقطع عن فتاة أخرى يهودية كانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار وتدافع عن أمريكا والغرب، لكن حظها معه شاء لها أن تخطئ خطأ كبيرا حين تعاملت بفتور مع صديقه عبد القيوم بسبب لون بشرته:

«. . . ثم إننى تعرفت على فتاة يهودية كانت تزاملنى فى دراستى، وكانت تعرف الإنجليزية، وكانت تتودد إلىّ منذ مدة، فكانت تأتينى من وقت لآخر ببعض الفطائر التى تصنعها فى المنزل، ودعتنى لمنزلها الذى كان يقع فى وسط المدينة بجانب مبنى الأوبرا، وكانت أمها مريضة ومتزوجة بغير أبيها الذى تقول إنه توفى فى الحرب، وكان زوج أمها لطيفا معها، ويحسن معاملتها».

«كنت أتردد على منزلها ونذاكر دروسنا معا، ونخرج أحيانا للنزهة، ومرة قالت لى إنه تريد أن تحصل منى على طفل، ولم يكن بيننا أى اتصال جنسى، ولم يدفعنى ذلك إلى أن أقوم بهذا الاتصال، فكنت أشعر أن ذلك يجب أن يقوم على تفاهم كامل، ونية للارتباط، ولم أكن قد قررت ذلك، فضلا عن أننا كنت نختلف فى وجهات النظر السياسية، فكانت تكره النظام الاشتراكى وتهاجمه باستمرار، وتدافع عن أمريكا والغرب، وكنا نتناقش فى ذلك كثيرا، ثم كانت وفاة أمها مما دفعنى إلى أن أحرص على علاقتى بها لمساندتها فى محنتها، وكان زوج أمها يريد ذلك أيضا، إلى أن كانت واقعة جعلتنى أقطع علاقتى بها، فعند مجىء عبد القيوم أردت تعريفه بها باعتباره من أعز أصدقائى، لكنها لم ترغب فى ذلك عندما عرفت بأنه أسود، وكان لقاؤها به فاترا، ولم أستطع أن أتسامح أن يكون لديها مشاعر عنصرية، فقطعت علاقتى بها على الفور، وأبلغتها بذلك وبالسبب».

(٤٨)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن تجربة المجر الاشتراكية حديثا موجزا ودقيقا نشعر معه بما كان هو نفسه يعانيه من الاغتراب وهو يعيش هذه التجربة التى لا يجد حرجا فى نقدها بصوت عال، وأن يدلنا على بعض المظاهر الصارخة لنقدها:

«. . . وكانت المجر تنقل الخبرة السوفييتية نقلا حرفيا، وتقوم أجهزة الإعلام ليل نهار بالدعاية للاتحاد السوفيتى، مما كان يستفز المشاعر الوطنية للمجريين».

«وأذكر فى أحد الأيام أن كنت راكبا الترولى باس، وكان يجلس فى العربة رجل يتحدث تحت تأثير الخمر، وأخذ يقرأ أسماء الشوارع «شارع مايكوفسكى». . «شارع لينين». . إلخ، ثم يوجه الحديث لباقى الركاب مازحا «يبدو أن أسماء الشوارع أصبحت مجرية أكثر من اللازم»، فينفجر الركاب ضاحكين».

«وكانت المعارضة مكبوتة، ولهذا كانت تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة، مثل الالتفاف حول الكنيسة، وكان من المناظر المألوفة أن يرفع المجريون قبعاتهم عندما يمرون بجوار الكنيسة، وكان ذلك تعبيرا عن المقاومة».

«كانت المجر فى الحرب العالمية الثانية متعاونة مع ألمانيا، وكانت لفترة جزءا من الإمبراطورية النمساوية، ولهذا نجد كبار السن فى العادة يعرفون اللغة الألمانية، أما الشباب فيدرسون اللغة الروسية فى المدارس كلغة أجنبية أولى، ولم تنشأ علاقة المجر مع الاتحاد السوفييتى إلا بعد دخول القوات السوفييتية للمجر، وأثر ذلك على سير التطورات السياسية فى المجر، خصصوا فى الفترة الستالينية».

«ولم يكن لدى أدنى شك أنه جرت هناك أى عمليات من القهر أو الضغط، وكنت مؤمنا أن كل شىء تم بطريقة ديمقراطية، وباختيار حر من الجماهير».

«فى مارس ١٩٥٣ نزل علينا موت ستالين كالصاعقة، وقد تأثرت لذلك كثيرا، وسرت فى الجنازة التى سارت فى المجر تأبينا له، وكنا نحب ستالين ولا نفصل بينه وبين حبنا للاشتراكية، وحبنا للاتحاد السوفييتى، وكانت هذه هى مشاعر كل الشيوعيين المصريين، وليس الشيوعيين وحدهم، بل كل القوى الديمقراطية والتقدمية، وأذكر أن خالد محمد خالد كتب فى ذلك رثاء ختمه بقوله:

«طبت حيا وميتا يا رفيق».

«أما كمال عبد الحليم فكتب قصيدة رثاء كان يختمها بأبيات معناها:

«إذا كان لينين قد أعطانا بعض أجزاء الحياة، فإن ستالين قد أعطانا كل أجزاء الحياة».

. . . . . .

ومع هذا فإن محمد يوسف الجندى بعد فوات الأوان يستدرك ويقول:

«لم يخفف ذلك من اقتناعى بالنظام الاشتراكى، ولكننى بدأت أتبين صورة أكثر واقعية للمشاكل التى يعيشها النظام الاشتراكى فى هذه الفترة، وأن بناء الاشتراكية ليس بالأمر السهل، وأنه من الخطأ نقل ما يطبق فى الاتحاد السوفييتى دون دراسة الظروف المحلية واستعداد الناس».

(٤٩)

ونأتى إلى مستويات نادرة من الثقة بالنفس، والشجاعة الأدبية، فنحن نرى محمد يوسف الجندى وهو لا يجد أى غضاضة فى الاعتراف بأنه كان يستخدم الملابس التى تأتيه هدية من أخيه:

«كان أخى أحمد يرسل لى من وقت لآخر بعض بدله، وقد اعتدت على ذلك لفترة طويلة، وكان حجمه مثل حجمى، فلم أكن أحتاج لتفصيل أو شراء أى بدل، وأذكر أننى لم أشتر حتى بلغت سن الستين أى بدلة، ولكننى كنت أستعمل ما يهديه لى أخى، وأذكر مرة أننى كنت فى زيارة لأحد أقارب الفتاة اليهودية التى كنت أعرفها، فسألنى أحد الشباب: «هل تعطينى هذه البدلة الرأسمالية وتأخذ بدلتى الاشتراكية؟»، وحدث أكثر من مرة أن سرقت بعض بدلى فى بيت الطلبة».

(٥٠)

ثم نأتى إلى فقرات سريعة تصور شعور محمد يوسف الجندى بالاغتراب حين أتيح له أن يخرج من مهجره المجرى إلى ألمانيا حيث التقى هو وصديقه يوسف حلمى بخالد محيى الدين ثم إلى باريس بعد أن غاب عنها أربع سنوات:

«قطع القطار تشيكوسلوفاكيا . . . ثم انطلق القطار شمالا إلى ألمانيا، ثم وصل إلى برلين حيث نزلت».

«وكان فى انتظارى يوسف حلمى ومعه إحدى معارفه من الألمانيات».

«وكان يوسف حلمى قد دبر خروجه من مصر عام ١٩٥٤، وعاش فى فرنسا بجواز سفر مزور، وكان يحتاج للسفر من فرنسا من وقت لآخر عندما يحين ميعاد انتهاء مدة إقامته، وقد التقى بى وقدم لى جوازا».

«وقد سرنى أن أحصل على جواز أتنقل به داخل فرنسا وخارجها عند اللزوم، ففى المرة الأولى لم تكن معى أية أوراق، مما أدى إلى اعتقالى بعد ذلك ثم طردى».

«لم يكن سور برلين قد بنى بعد، وكان من السهل الانتقال بالمترو بين شرق برلين وغربها، رغم أن ذلك كان يتم تحت رقابة شديدة من بوليس ألمانيا الشرقية. ركبنا المترو من برلين الشرقية وانتقلنا إلى برلين الغربية، حيث كانت تقطن صديقة يوسف حلمى الألمانية، ومن هناك اشترينا تذكرتى طائرة إلى جنيف لى وليوسف حلمى».

«كان هناك فرق كبير بين برلين الشرقية والغربية، فبينما كان يسود برلين الشرقية جو من التقشف الشديد، كانت برلين الغربية مليئة بالأضواء والبضائع التى تملأ المحلات، وكان الغرب يحرص على: أن يحولها إلى لوحة إعلانات لجذب سكان ألمانيا الشرقية والدعاية ضد نظامهم».

«ركبنا الطائرة إلى زيورخ، ومنها أخذنا الطائرة إلى جنيف، وبينما كنا فى الطائرة وكلانا بجواز سفر مزور قال لى يوسف حلمى: ألا تشعر بالاغتباط وأنت تخدع كل هذه الحكومات؟! وضحكنا».

(٥١)

وها هو يلتقى بالأحبة القدامى وعلى رأسهم خالد محيى الدين نفسه الذى ظل على علاقة باليساريين حتى بعد أن نفاه عبد الناصر بعيداً عنهم:

«فى محطة جنيف كان ينتظرنا خالد محيى الدين، الذى دعانا لتمضية الليلة عنده،

وكان خالد فى فترة نفيه إلى سويسرا بعد أن اختلف مع زملائه فى مجلس قيادة الثورة، وكان يسكن مع زوجته فى أحد المنازل بمدينة بجنيف، وقد رحب بنا خالد وزوجته وأكرم ضيافتنا وحدثنا عن حياته فى سويسرا، وكيف أنه لا يستطيع التأقلم معها، وعن شوقه للعودة إلى الوطن».

«وفى الصباح ركبنا معه سيارته التى قادها بنفسه وذهبنا إلى الحدود السويسرية ـ الفرنسية، وتوجهنا إلى إحدى القرى الفرنسية الواقعة على حدود جنيف، والتى اعتاد السويسريون أن يذهبوا إليها لشراء بعض حاجياتهم، وعندما عبرنا الحدود لم يسألنا حرس الحدود عن جوازات السفر، وسألونا فقط إن كان كل شىء على ما يرام، قلنا: نعم، ودخلنا القرية الفرنسية حيث تركنا خالد محيى الدين، وركبنا القطار إلى باريس».

«عدت إلى باريس ثانية بعد غياب أربع سنوات، وبعد أن طردنى البوليس الفرنسى منها، ولكن فى هذه المرة كان معى جواز سفر».

«وقد روى لى أخى أنه ذهب إلى باريس عدة مرات بعد طردى، فكان البوليس الفرسى يستدعيه لتشابه الأسماء، ولا يطلق سراحه إلا بعد أن يثبت له أنه شخص آخر غيرى».

«كان يوسف حلمى يسكن فى منزل فى منطقة فى ضواحى باريس اسمها «مالاكوف»، وكان منزلا مستقلا مكونا من حجرتين ومطبخ ودورة مياه وحديقة. دعانى للسكن معه».

. . . . . .

. . . . . .

«وفى أحد الأيام جاء فاروق ثابت لزيارتنا من القاهرة ولم أكن أعرفه من قبل، ولكنه كانت تربطه علاقة نسب بزوجة يوسف حلمى، وقد ساعد يوسف حلمى فى هروبه وخروجه من مصر، أمضى معنا عدة أيام واتفقت معه على أن يستقبلنى فى القاهرة عند حضورى ويتولى أمور إقامتى وأمانى».

«بعد حضورى إلى باريس بدأت الإعداد للعودة، وكان ذلك يحتاج إلى بعض الاستعدادات استمرت لمدة عام».

(٥٢)

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن معاناته التنظيمية وهو فى باريس (بل وهو لايزال فى بودابست قبل أن يصل إلى باريس) من خضوعه لقرارات الحزب الشيوعى المصرى الموحد، وهى قرارات جاء على العكس من اقتناعاته، وسرعان ما تفرض الاقتناعات صراعها مع الالتزامات منشئة غربة جديدة لمحمد يوسف الجندى تضاف إلى اغترابات المتتالية:

«. . . وعندما كنت فى بودابست تلقيت رسالة من رفاقى تخطرنى بتحقيق الوحدة بين منظمتنا «حدتو» وأربع منظمات أخرى صغيرة هى: «حدتو ت. ث»، و«النجم الأحمر»، و«طليعة الشيوعيين»، و«نواة الحزب الشيوعى المصرى»، وأننى اخترت عضوا فى اللجنة المركزية للحزب الجديد الذى سمى «الحزب الشيوعى المصرى الموحد»، وكان التنظيم الأكبر هو حدتو، ولكن الوحدة تمت فى ظروف كانت حدتو تتخلى فيها عن موقفها الذى اتخذته بعد قيام ثورة يوليو بتأييدها، وانتقلت فى ١٩٥٣ إلى الدعوة للإطاحة بالدكتاتورية العسكرية، وهو نفس ما كانت تدعو إليه المنظمات الصغيرة الأخرى، وتمت الوحدة فى ظروف سياسية تمثل هزيمة لخط حدتو فى تأييد الثورة، وكان من تنازلات حدتو لإتمام الوحدة وقف عضوية يونس (هنرى كورييل) فى اللجنة المركزية والحزب إلى أن يغير الحزب الشيوعى الفرنسى موقفه منه».

. . . .

. . . .

. . . .

. . . .

«فى هذه الظروف وصلت إلى باريس، وكنت العضو القيادى الوحيد فى مجموعة باريس التى كانت تسمى حركيا «مجموعة روما»، وكان يونس (أى هنرى كورييل)

موقوفا، وكان من الطبيعى أن أكون مسئولا عن المجموعة، وأصبحت فى وضع حرج، فكان علىّ أن أنفذ القرار الحزبى بوقف يونس رغم عدم اقناعى بسلامته، ووسط مجموعة تعتبر يونس قائدا وموجها لها».

و«وجدنا حلا لذلك بأن يقتصر يونس على العمل الديمقراطى وذلك فى مجالين، الأول هو التضامن مع المسجونين السياسيين، والثانى قضية السلام بين العرب وإسرائيل، وقد قام فى هذين المجالين بعمل كبير، وساعدته فى ذلك جويس بلاو، فجرى الاتصال بالكثير من القوى من مختلف الاتجاهات فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوروبية للمطالبة بالإفراج عن المسجونين والمعتقلين الشيوعيين، وجُمعت من أجلهم الأموال والأدوات التى أرسلت لهم فى السجون، وقام أيضا بعمل كبير فى الاتصال بالقوى التقدمية والديمقراطية فى إسرائيل للدعوة للسلام بين العرب وإسرائيل على أساس قيام دولة فلسطينية إلى جانب الدولة الإسرائيلية».

(٥٣)

على هذا النحو تصور محمد يوسف الجندى أنه حل الإشكالية التى وقع فيها، لكن الظروف تمضى به فى اتجاه يزيد اغترابه، إذ سرعان ما يختلف هو نفسه مع زعيمه القديم هنرى كورييل، وكان السبب فى اختلافهما هو الموقف من عبد الناصر:

«وزاد من حرج الموقف وتوتره أننى اختلفت سياسيا مع يونس حول الموقف من النظام الحاكم فى مصر، فمنذ باندونج بدأت أعتقد بضرورة تغيير موقف المعارضة من عبد الناصر إلى تأييده، وكتبت هذا الرأى إلى زملائنا فى مصر، وكان زملاؤنا المعتقلون فى الواحات الخارجة قد بدأوا يتخذون نفس الموقف، ولم يتغير الموقف الرسمى للحزب فى الخارج إلا بعد ذلك، أما يونس فكان يرى ضرورة الاستمرار فى معارضة «الدكتاتورية العسكرية»، ودارت بيننا مناقشات كثيرة، وخلافات ساعدت فى خلق جو من التوتر».

(٥٤)

على أن باريس فى هذه المرة لم تكن (بالنسبة لمحمد يوسف الجندى) إلا محطة يعود منها إلى مصر، وقد تم ترتيب عودته عن طريق السودان، وحين يصل محمد يوسف

الجندى إلى القاهرة عن طريق السودان فإننا نراه يلهث من العودة إلى وطنه، ألا ترى إليه وهو يتحدث إلى زوج أخته الذى لم يره من قبل، لكنه مع هذا حريص على أن يسجل كثيرا من مواقف الرفاق فى هذه الفترة التى شهدت الإفراج عن بعض المعتقلين وبقاء بعضهم (كمال عبد الحليم) مبعدين عن نشاط الحزب بناء على الاتفاقات الشيوعية:

«وصلت إلى محطة مصر ولم أجد فاروق (أى فاروق ثابت) فى انتظارى، فماذا أفعل؟ القاهرة فى حالة إضراب، والمواصلات متوقفة، ذهبت إلى مقهى المحطة واتصلت برقم منزلنا فى قصر العينى، لكن الرقم تغير، كنت أراسل أختى سعاد باسم مستعار هو «يحيى السمالوطى»، وكنت أعرف أنها تزوجت من محام اسمه عصمت سيف الدولة، فبحثت عن اسمه فى دليل التليفون ووجدت رقمه وأدرت الرقم فردت علىّ «الشغالة»، سألت عن الست فسألتنى عن اسمى قلت يحيى السمالوطى، فنادت على عصمت، لم أكن أعرفه ولم أكن رأيته من قبل، قلت له إننى فى مقهى محطة مصر، قال سأحضر حالا، وبعد قليل وصل، وتعرف علىّ، وذهبنا معا إلى منزله ومنزل أختى».

«كانت مفاجأة شديدة لأختى، لكنها استقبلتنى بفرح، واتفقنا ألا تخطر أحدا بوجودى باستثناء إخوتى، واتفقنا بناء على رأى أختى عايدة ألا تخطر زوجها أنور وحش الذى كان يعمل وقتها رئيسا للنيابة».

«اتصلت بفاروق ثابت وظهر أنه لم يحضر إلى المحطة لأنه كان فى الإسكندرية، وعن طريقه اتصلت بالحزب فدبر لى لقاء مع محمود أمين العالم، ورتب لى لقاء مع كمال عبد الحليم الذى كان مبعدا وفقا لشروط الوحدة، وكان المعتقلون قد أفرج عنهم عام ١٩٥٥، ومنهم إبراهيم عبد الحليم الذى أسس «دار الفكر»، وكان كمال وغيره من المثقفين المرموقين مثل فؤاد حداد، وصلاح جاهين، وحسن فؤاد، وعبد الرحمن الشرقاوى يتعاونون معه تعاونا وثيقا فى عمل دار الفكر».

«وقام كمال عبد الحليم بالاشتراك مع عبد القادر التلمسانى وغيره بتأسيس «أفلام

النور» التى نجحت فى عرض فيلم «الأم» لماكسيم جوركى بسينما أوديون، ولكن عملها لم ينجح بعد ذلك (ربما نقطع تواصل حديث محمد يوسف الجندى لنذكر أن ألفريد فرج فى مذكراته التى تناولناها فى هذا الكتاب يقول: إن هذا الفيلم عرض ليوم واحد فقط)، وقد قمت بترجمة سيناريو الأم من الروسية إلى العربية، وذهبت إلى معامل أنيس عبيد وصدرت الترجمة فى كتاب عن دار الفكر، وجاء فيه أن الترجمة قام بها كمال عبد الحليم، واستأت من ذلك، فقال لى إبراهيم عبد الحليم إنه لا يمكن وضع اسمى بسبب وضعى الخاص».

(٥٥)

ثم يتحدث محمد يوسف الجندى عن بعض الصراعات الشيوعية ـ الشيوعية فى هذه الفترة، وعن نجاحه فى إعادة كوريل وكمال عبد الحليم إلى موقع القيادة فى الحزب، كما يتحدث عن نشاط الحزب الشيوعى فى حرب ١٩٥٦:

«كان هناك صراع واضح بين دار الفكر وبين الحزب، وكان نشاط دار الفكر وكمال عبد الحليم بين المثقفين واسعا، وكان تأثيرهم أكبر».

«بدأت أحضر اجتماعات اللجنة المركزية، وانتخبت عضوا فى المكتب السياسى والسكرتارية المركزية، وتعرفت برفاق جدد لم أكن أعرفهم من قبل».

«ورغم أننى كنت مختلفا مع يونس (أى هنرى كوريل) فى الموقف السياسى من عبد الناصر عندما كنت فى الخارج، فإننى كنت مقتنعا بظلم الموقف المتخذ منه فى شروط الوحدة، ولهذا خضت معركة لإلغاء هذا القرار ونجحت فى ذلك، واتخذ قرار بالأغلبية بإلغائه، وعاد عضوا فى قيادة الحزب الشيوعى الموحد، وخضت معركة أيضا لعودة كمال إلى قيادة الحزب، وكانت معركة أسهل، وقد عاد معه إبراهيم عبد الحليم الذى لعب دورا (مهما) فى قيادة دار الفكر».

«كان الجو السياسى مشحونا، وكانت التهديدات فى الغرب تتصاعد ضد عبد الناصر بعد تأميم القناة، وقد وقف الحزب الشيوعى الموحد بثبات مع عبد الناصر فى معركته ضد الاستعمار».

«وفى أكتوبر ١٩٥٦ كان العدوان الثلاثى، وركز الحزب كل نشاطه لخدمة المعركة،

وسافر عدد من القياديين مثل أحمد الرفاعى، وسعد رحمى، وعبد المنعم شتلة إلى بورسعيد، ذهبوا إلى هناك بالاتفاق مع عدد من الضباط مثل كمال رفعت وغيره».

«وعمل الشيوعيون داخل بورسعيد أثناء الاحتلال البريطانى والفرنسى، ونظموا المقاومة وأصدروا مجلة «الانتصار»، وكان لهم دور بطولى».

«وذلك فى الوقت الذى تخاذل فيه المحافظ وغيره من كبار الموظفين الإداريين، ورغم أننى كنت أعيش فى السرية فقد تطوعت للتدريب على إطلاق النار فى أحد معسكرات التدريب التى أنشئت فى القاهرة، واجتزت الامتحان بدرجة ممتاز».

«وفى أثناء الحرب قللت من درجة اختفائى واستأجرت حجرة بسطوح إحدى العمارات بالجيزة، ثم انتقلت إلى شقة بإحدى العمارات بالجيزة سكنت فيها فترة مع فاروق ثابت».

(٥٦)

ونأتى إلى تأمل محمد يوسف الجندى الناضج لقصة زواجه الأول واضطراره هو وزوجه وزملاؤه إلى التآمر من أجل إتمام هذا الزواج على نحو ما تم، مما كاد يتسبب فى كوارث على حد اعترافه هو:

«... فى هذه الظروف كان علىّ أن أبحث عن رفيقة تقبل أن تشاركنى هذه الحياة».

«وتحدثت فى هذا الأمر مع أحد الزملاء الذى قال لى إنه تعرف على فتاة فى المقاومة الشعبية اسمها ليلى يرشحها لأتزوج منها، وطلب منى أن يتحدث معها أولا، تحدث معها فقبلت ونظم لقاء بيننا فى منزله».

«قالت إن والدها قاس وشديد، ولا يجب أن أطلعه على اسمى الحقيقى ووضعى، فهى لا تأمن له، وكان لابد من التآمر».

«اتفقنا أن أتقدم له باسم محمد يوسف أحمد، وأننى حائز على ليسانس الحقوق، وأننى أعمل فى مؤسسة «أفلام النور».

«أخبرت إخوتى بهذا المشروع فرحبوا، فقد كانوا يشفقون علىّ من استمرار تلك الحياة الجدبة، وكانوا يريدون أن توجد بجانبى إنسانة تسهل لى تلك الحياة».

«وكان لابد أن أقدم أحد أقاربى، واتفقت مع خالتى ومع أخى حسن، ومع فاروق ثابت على أنه ابن خالتى».

«وزارنى والد ليلى فى موسسة أفلام النور، ولكنه لم يكتف بذلك، بل ذهب إلى كلية الحقوق وبحث فى السجلات عن اسمى بين المتخرجين عام ١٩٤٧ فلم يجد، وأخذ الشك يتسرب إليه».

«ومع ذلك فقد عقد القران فى منزله بالحلمية، وحضر معى شاهدان هما صلاح جاهين، وسيد مكاوى، وكانا يعرفان بوضعى، طلب منى المأذون تقديم بطاقتى الشخصية، ولم يكن معى بطاقة، وتصدى سيد مكاوى فورا للدفاع عنى وقال: إنه يعمل فى الإذاعة، ولا يملك بطاقة شخصية».

«كان اليوم هو ٨ يناير ١٩٥٨».

. . . . . .

. . . . . .

«. . . فى هذه الظروف الحزبية بالإضافة إلى ظروفى الشخصية غير الطبيعية عقد قرانى على ليلى عويس، وكانت تعمل مدرسة للغة الإنجليزية فى إحدى المدارس الإعدادية، واستأجرنا شقة فى روكسى بمصر الجديدة، واتفقنا فى اليوم التالى للزواج على أن نسافر لقضاء شهر العسل فى الفيوم».

(٥٧)

ثم نأتى إلى هذا الاعتراف الجميل الذى يلقيه محمد يوسف الجندى على أسماعنا، وهو اعتراف يكاد يغير من عقائدنا عن الزواج بوجه عام، لكننا ينبغى ألا ننسى أن هذا الزواج الواثق تم فى داخل تنظيمات شيوعية:

«هكذا تم الزواج، لم يكن زواجا عن حب، ولكن عن إحساس منى بأننى أريد أن

أحيا حياة طبيعية بعد سنوات السجن والمنفى، والرغبة فى وجود إنسانة إلى جانبى، ولم أكن أتصور أن أقيم علاقة ثابتة مع امرأة دون زواج، ولم تكن ظروفى أو طبيعتى تسمح لى بأن أقيم علاقات عابرة».

«ولم تتزوجنى ليلى أيضا عن حب، فقد كانت تعتبر الزواج تخلصا لها من سطوة أبيها وقسوته، وكانت إنسانة تميل إلى التحرر، وترفض القيود، بل لقد قالت هذا المعنى لإحدى صديقاتها الصحفيات فى روز اليوسف، وقالته بحضورى، لكننا حاولنا أن يكون زواجا ناجحا، وكنت جادا فى ذلك، وأخذت تتكون عندى العاطفة نحو زوجتى بعد الزواج».

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن اعتقاله (فى مايو ١٩٥٩) بعد بدء اعتقال الشيوعيين بخمسة شهور فيقول:

«. . . وإذا كانت حملة الاعتقالات فى يناير قد شملت كادر الصف الأول، فقد شملت حملة مارس ١٩٥٩ دائرة أوسع بما فى ذلك بعض العناصر اليسارية غير المرتبطة تنظيميا بالحركة الشيوعية مثل لويس عوض، الذى كان وكيلا لوزارة الثقافة، وعبد الرازق حسن، وحسن فؤاد وغيرهم. اعتقل فاروق ثابت فى حملة مارس، وأصبح العمل أكثر صعوبة».

«وفى ١٢ مايو ١٩٥٩ كنت أسير مع محمد على الخياط على كورنيش النيل عندما شعرت فجأة بأذرع تقبض على كتفى من الخلف، وقبضوا علينا وأخذونا إلى وزارة الداخلية وعرضونى على حسن طلعت، وعندما رأنى تناول سماعة التليفون وتحدث مع شخص آخر لم أعرف مَنْ هو، قال: «مسكنا محمد يوسف الجندى»، ثم رد: «الله يبارك فيك».

«وأخذونى إلى سجن القلعة، وحبست حبسا انفراديا، وأخذت فى اليوم التالى إلى النيابة وبدأ صلاح نصار يحقق معى، وكان وجهه معروفا لى، وحاول أن يبدو ودودا، ولكنه كان من أسوأ المحققين فى أسلوبه فى التحقيق، وفى الأسئلة التى قام بتوجيهها

والتى لم تكن تتسم بالموضوعية، وبعد الإفراج عنى التقيت بأحد الأشخاص فى الإسكندرية الذى ذكرنى بأنه كان فى إحدى مجموعات التنظيم فى كلية الحقوق وأنه كان معنا صلاح نصار».

«حاول صلاح نصار أن يقول على لسان زوجتى أقوالا غير صحيحة، ويحاول إيهامى بأنها قالت اعترافات ضدى، ثم عرفت أنها اعتقلت وواجهونى بها، وتأكدت بعد ذلك من كذبه ومن استخدامه لأسلوب رخيص فى التحقيق معى، وعرفت بعد ذلك أن زوجتى حجزت يوما كاملا فى القسم، وأنهم اعتقلوها من بيت والدها الذى كانت تقيم فيه، واقتادوها إلى منزلنا فى شارع إسماعيل أباظة، وقالت لى: إن رجال المباحث والمخبرين احتلوا المنزل بعض الوقت، وإنها اكتشفت بعد ذلك سرقة إسورة ذهبية كانت هى الشبكة التى كنت قدمتها لها عند الزواج».

«أفرج عن زوجتى بعد ذلك، ولكنى تألمت جدا لاعتقالها، وتلقيت منها بعد ذلك خطابا عن طريق أحد الحراس أرضانى بعض الشىء».

(٥٨)

ويلخص محمد يوسف الجندى قرار اتهامه فى هذه القضية ويعرض بعض ما قاله فى المحكمة:

«أصدرت النيابة قرار اتهام فى قضيتين عرفت الأولى باسم قضية الحزب الشيوعى المصرى، وكانت تضم ٦٤ متهما من أبرزهم د. فؤاد مرسى، ود. إسماعيل صبرى عبد الله، وأبو سيف يوسف، ومحمود أمين العالم، أما القضية الثانية فكانت تعرف باسم قضية حدتو، وكان المتهم الأول فيها شهدى عطية الشافعى، وكنت المتهم السادس فى هذه القضية، وكان من بين المتهمين مبارك عبده فضل، وإبراهيم عبد الحليم، وكمال عبد الحليم (وكان هاربا لم يقبض عليه)، ومصطفى بهيج نصار، وعادل حسين وغيرهم».

«وفى البداية نقل المتهمين فى قضية الحزب الشيوعى المصرى إلى الإسكندرية استعدادا للمحاكمة أمام المجلس العسكرى الذى شكل خصيصا لذلك برئاسة اللواء هلال عبد الله هلال».

. . . . . .

. . . . . .

«. . . وتحدثت عن مصير مَنْ كانوا يحاكموننا ويحققون معنا فى ذلك الوقت مثل حسين طنطاوى، ومحمد كامل القاويش».

«وفى رد سمير ناجى ممثل النيابة علىّ، فقد دافع عن هؤلاء وقال إنهم لم يأكلوا على مائدة الأجنبى كما فعلت على حد زعمه، وكان المصيلحى فى شهادته قد أشار إلى أننى بعد هربى من السجن ذهبت إلى المجر وعشت فيها فترة، ودافع عنى جمال العطيفى وكان دفاعه جيدا بشهادة جميع زملائى».

«وقد اختلف دفاعنا عن دفاع المجموعة الأخرى «الحزب الشيوعى المصرى» فى أنه لم يعترف أحد منا بعضوية الحزب الشيوعى، فقد حرصنا على ألا نقدم للمحكمة الحجة القانونية لإدانتنا، ولكننا دافعنا عن شيوعيتنا، وعن مبادئنا وأفكارنا».

«تركت المحكمة لنا حرية الكلام والدفاع عن أنفسنا، واستمرت المحاكمة عدة أيام، وكانت الأحكام جاهزة، وهى لم تصدر فورا، ولكنها أعلنت لنا فى السجن بعد عدة أسابيع، وكنا وقتها قد نقلنا إلى سجن القناطر بعد مذبحة أوردى أبو زعبل، وكانت أقسى الأحكام على شهدى عطية، وإبراهيم عبد الحليم بالأشغال الشاقة عشر سنوات، وصدرت الأحكام على كثير من زملائنا فى القضية بالأشغال الشاقة أو السجن عدة سنوات».

(٥٩)

وهو يتحدث عن المفارقة المتمثلة فى أن المعتقلين الذين حصلوا على البراءة (وكان هو نفسه واحدا منهم) كانوا يعاملون بأسوأ من الذين صدرت عليهم أحكام، ومع ذلك فقد خرج هؤلاء وأولئك فى أوقات متقاربة:

«أما أنا فقد صدر الحكم ببراءتى من التهمة، وقد تساوى الأمر بين مَنْ صدرت ضدهم أحكام، وبين مَنْ صدر الحكم ببراءتهم، فقد تحول الجميع إلى معتقلين وخرجوا فى نفس الوقت تقريبا، فالمعتقلون أفرج عنهم فى أبريل ١٩٦٤، أما المحكوم عليهم فقد تم الإفراج عنهم فى مايو».

«وكانت معاملة للمحكوم عليهم فى السجن أفضل من المعتقلين، فكانوا على عكس المعتقلين يسمح لهم بالزيارات، وتطبق عليهم لائحة السجن، ولهذا قدمت فى السجن طلبا بتطبيق الحكم الصادر علىّ عام ١٩٤٩ حتى أستفيد من تطبيق لائحة السجن علىّ فلم يردوا على طلبى، وظهر بعد ذلك أن ملف القضية قد ضاع».

(٦٠)

ويلخص محمد يوسف الجندى بعض مظاهر التعذيب فى أوردى أبو زعبل تلخيصا تقشعر له النفس، ولسنا بقادرين على أن ننقل مثل هذه الفقرات القاسية، لكننا نجتزئ منها هذه الفقرة التى يتحدث فيها محمد يوسف الجندى عما سبق وفاة شهدى عطية من تعذيب:

«. . . ووصلت إلى الميدان الذى كانت به منصة يجلس عليها اللواء همت المعروف عنه فى مصلحة السجون تنظيم عمليات التعذيب، وجلس إلى جانبه الحلوانى مأمور سجن الحضرة بالإسكندرية وغيره من ضباط السجون وضباط مباحث أمن الدولة، ولم أكن أستطيع تبين الوجوه من شدة الضرب».

«وفى الميدان الذى كان يحتشد بالجنود والضباط كان هناك كاتب يسجل الأسماء وحلاق، وكانت عملية التسجيل وحلاقة الرأس تتم مع الضرب الشديد على كل أجزاء الجسم التى كانت تصحبها الأوامر بأن نخلع كل ملابسنا ونصبح عارين كما ولدتنا أمهاتنا، ثم يسلم كل منا بورشا وبطانية، ونؤمر بأن نستلقى على ظهرنا ونضع كل هذه الأشياء (البورش والبطانية) على بطننا ونسحل إلى داخل السجن، وعند بوابة السجن يستقبلنا أحد الضباط بالضرب المميت، ثم تستكمل المسيرة بهذه الطريقة».

«وعند باب العنبر يستقبلنا أحد الصولات اسمه مطاوع وينهال على كل منا بالضرب ويقول: «قول أنا مرة». . «قول أنا مش شيوعى»، ثم يطلب منا أن نقف ووجهنا إلى الحائط وبقينا كذلك فترة وكلنا مصاب بجروح مختلفة، ثم أغلق العنبر ولاحظنا غياب خمسة من زملائنا هم: شهدى عطية، ومبارك عبده فضل، ومحمد عباس فهمى، وجمال غالى، ونور الدين سليمان، ونظرنا إلى بعضنا البعض، ورأيت إبراهيم عبد الحليم ورأسه يعلوه ما يشبه الأهرامات من أثر الضرب، وبدأنا نتحادث وضحكنا على منظر رأس إبراهيم، وبدأ يضحك معنا».

«وكان يجلس جانبى بهيج نصار، وكان معنا عادل حسين فى نفس العنبر».

«بعد التمام فى المغرب سمعنا نداءات من العنبر المجاور، وبدأنا نسمع أخبارا غير مؤكدة عن طريقة تعذيب زميلنا شهدى عطية، وكيف أنه استقبل استقبالا خاصا، وكان يضرب ويرمى فى الترعة، ثم يعاد ضربه من جديد، وأنهم يشكون فى أنه قتل».

. . . . . .

. . . . . .

«. . . وقتل من التعذيب الدكتور فريد حداد عند استقبال مجموعته».

. . . . . .

ربما نتوقف هنا لنسأل التاريخ عن وفاة فريد حداد التى لم تنل من الأهمية ما نالته وفاة شهدى عطية الشافعى.

. . . . . .

(٦١)

ونصل إلى مفارقة شديدة تتمثل فى حضور زوج أخته مكلفا من النائب العام للتحقيق فيما تردد عن التعذيب، لكنه لم يستطع أن يتحمل المناظر البشعة، فوضع يده على وجهه وخرج على الفور، وقد حدث هذا دون أن يتعرف عليه محمد يوسف الجندى نفسه:

«عرفنا بعد ذلك أن أربعة من زملائنا فى العيادة بين الحياة والموت وهم: مبارك عبده فاضل، وجمال غالى، ومحمد عباس فهمى، ونور الدين سليمان، فقد أصيبوا بصدمة عصبية».

«وفى اليوم التالى جاء الطبيب مع الممرض، وكان الطبيب متعاونا مع إدارة السجن، وبعد يومين فتحت أبواب العنبر ودخل شخص يسأل: مَنْ كان مع شهدى عطية فى السيارة؟ فهمنا أن ما تردد عن قتله صحيح، وانهار بعضنا فى البكاء وأخذنا

نكشف عن ظهورنا، ورأى السائل مناظر بشعة فوضع يده على وجهه وخرج على الفور، لم أستطع تبين ملامح هذا الشخص، إذ أننى فقدت نظارتى أثناء التعذيب، ولكننى بعد الإفراج عنى عرفت أنه أنور وحش زوج أختى، وأنه كان رئيس نيابة المنطقة، وأنه جاء للتحقيق بتكليف من النائب العام».

(٦٢)

ثم يتحدث محمد يوسف الجندى عن اللحظات التى شهدت تلقيهم أحكام المجلس العسكرى، وما تلا هذا الحكم من انتقال إلى أبى زعبل إلى سجن الواحات، وهو الانتقال الذى تم عن طريق «الحجلة» الرهيبة على نحو ما نقلنا تصويره عن ألفريد فرج:

«وفى سجن القناطر وفى أحد الأيام استدعينا فردا فردا إلى إدارة السجن، وأبلغنا بأحكام المجلس العسكرى، أما أنا فقد أبلغت مع نور سليمان وعدد قليل آخر لا أذكره بالحكم بالبراءة، ونقل من صدر ضدهم الحكم بالعقوبة إلى سجن الواحات الخارجة، . أما نحن (أصحاب البراءة) فقد نقلنا إلى أوردى أبو زعبل انتظارا للبت فى أمرنا (الاعتقال أو الإفراج)».

«بقينا أياما فى أبو زعبل، وكان ذلك فى صيف ١٩٦١، وسمعنا وقتها عن القرارات التى سميت «القرارات الاشتراكية» واعتبرناها تأكيدا لخطنا، وأحدثت هذه القرارات ارتباكا شديدا لدى المجموعة الأخرى، وبدأ عدد منهم يتبنى موقفنا ومنهم محمود أمين العالم، ود. عبد العظيم أنيس، وغيرهما، وأعلنوا فيما بعد انضمامهم إلينا».

«انتظرنا عدة أيام فى أوردى أبو زعبل، وصدر قرار باعتقالنا ونقلنا إلى سجن الواحات الخارجة كمعتقلين، وكانت طريقة النقل هى ربطنا جميعا فى حجلات، وكان الطريق طويلا من أبو زعبل إلى الواحات الخارجة».

«وكانت المباحث العامة قد بدأت أسلوب اللقاء مع مَنْ يصدر حكم ببراءتهم وتطلب منهم استنكار الشيوعية وكتابة تعهد بعدم الاشتغال بالعمل السياسى، فمن يقبل يفرج عنه ومن يرفض يعتقل، ولكن حتى هذا لم يجرب معنا، فقد صدر قرار اعتقالنا ونفذ الاعتقال دون أن نلتقى بأحد».

(٦٣)

ويلخص محمد يوسف الجندى ذكرياته عن فترة بقائه فى سجن الواحات فى عبارات سريعة مع أن هذه الفترة طالت (بالنسبة له) ثلاث سنوات، ومع أن بعض الشيوعيين كانوا هناك منذ ١٩٥٣ و١٩٥٤ :

«أمضيت فى الواحات الخارجة ثلاث سنوات كاملة».

«وقد التقيت هناك بزملائنا من المسجونين الموجودين منذ الخمسينيات (منذ الأحكام التى صدرت ضدهم بالأشغال الشاقة والسجن فى عامى ١٩٥٣، ١٩٥٤، وكانت هناك أحكام تصل إلى عشر سنوات). التقينا هناك بزملاء أعزاء مثل زكى مراد، ومحمد شطا، ومحمد خليل قاسم، وصلاح حافظ، وسيد سليمان الرفاعى، ود. شريف حتاتة، وعبد الجابر خلاف، وحليم طوسون وغيرهم».

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

«. . . وكان من حق المسجونين أن يحصلوا على بعض المشتريات من الكنتين، وكانوا يقتسمونها مع المعتقلين الذين كانوا محرومين من التعامل مع الكانتين، وكانوا محرومين أيضا من الزيارات، لكن أسرهم كانت تحصل على زيارات باسم المسجونين».

. . . . . .

. . . . . .

(٦٤)

ويصيبنا بمحمد يوسف الجندى بالألم الشديد حين نرى أن زوجته كانت لا تستطيع أن تأتى لزيارته وهو فى المعتقل إلا من خلال الزعم بأنها تأتى لزيارة مسجون آخر محكوم عليه (وهو محمد عمارة)، أما ابنه الذى كان قد تعود رؤيته من وراء القضبان فقد أصبح يخطط القضبان على الورق :

«وأذكر أن زوجتى جاءت لزيارتى عدة مرات باسم محمد عمارة الذى كان مسجونا معنا، وكانت تأتى إليه مع خطيبته، فأعرف منه أخبارها وأخبار ولدى يوسف الذى كان قد بلغ الثانية من عمره، وكان يزورنى فى سجن مصر واعتاد أن يرانى من وراء القضبان، مما أثر عليه بعد ذلك وأصبح بعد ذلك يخطط على الورق رسم القبضان».

. . . . . .

. . . . . .

«كنا نتألم لسجننا، ولعمليات التعذيب التى مورست ضدنا، وللشهداء الذين سقطوا، ولكننا كنا نرى أن أمامنا أهدافا أكبر من ذواتنا وآلامنا، وأن علينا أن نبذل الجهد الأكبر فى التغلب على توجهات النظام اليمينية، وأن نساند بكل قوة الدعوة إلى وحدة كل القوى الاشتراكية ضد القوى الرجعية واليمينية».

(٦٥)

ويبدو محمد يوسف الجندى ككثيرين من الشيوعيين منخدعا فى نوايا عبد الناصر تجاه الشيوعيين، ومتصورا أن جماعات أخرى كانت تستطيع إجبار عبد الناصر على عدم الإفراج عن الشيوعيين:

«وفى أواخر عام ١٩٦٣ وصلنا ونحن فى السجن حديث جمال عبد الناصر مع إريك رولو الصحفى الفرنسى فى جريدة «الموند»، والذى وعد فيه جمال عبد الناصر بالإفراج عن الشيوعيين قبل نهاية العام، وانتهى العام ولم يفرج عنا، وتبينا أن هناك قوى تريد لنا أن نبقى فى السجن وتقاوم الإفراج عنا، ولم نيأس، ولم تتغير مواقفنا، بل استمرت دراستنا وتحليلاتنا وتأكدت ثقتنا فى ضرورة وحدة جميع القوى الاشتراكية بمختلف اتجاهاتها، وتحت قيادة جمال عبد الناصر».

«وسمعنا ونحن فى السجن عن تكوين تنظيم طليعى داخل الاتحاد الاشتراكى، وسمعنا بأن بعض زملائنا عند الإفراج عنهم اختيروا لعضوية هذا التنظيم الطليعى».

«بدأ الإفراج عنا، نحن المعتقلين فى أبريل ١٩٦٤، أما المسجونون فقد تم الإفراج عنهم فى مايو من نفس العام، وقيل إن الإفراج عنا كان مرتبطا بالزيارة التى كان

خروشوف ينوى القيام بها إلى مصر، وأعتقد أن قرار الإفراج قد اتخذ قبل ذلك، بدليل حديث عبد الناصر مع إريك رولو ووعده بذلك، وأنه سيتم قبل نهاية ١٩٦٣، ولكنه لم يتم فى هذا الموعد، وأعتقد أنه اختير موعد زيارة خروشوف لتحقيق هذا الوعد قبله بقليل، كجزء من الإعداد لهذه الزيارة».

«وكان خروشوف قد تحدث أكثر من مرة فى عام ١٩٥٩ عن المعتقلين الشيوعيين فى مصر، وأبدى تعاطفه معهم».

(٦٦)

ثم نأتى إلى تعبير بسيط لرجل مجاهد يخرج إلى الحرية بعد عذاب استمر خمسة عشر عاما فى السجن، وما هو أصعب من السجن:

«رحلت مع باقى المعتقلين الشيوعيين إلى السجن الحربى فى القاهرة، وهكذا كانت تبدأ إجراءات الإفراج».

«أمضيت هناك ليلة ونودى علىّ وخرجت إلى الحرية لأول مرة بعد خمس سنوات».

«وللمرة الأولى بعد أكثر من خمسة عشر عاما من السجن والهرب والمنفى ودخول البلاد سرا والعيش متخفيا وهاربا ومطاردا، أتوقع القبض علىّ فى أى لحظة».

«أكثر من خمسة عشر عاما لم أعش فيها حياة طبيعية، فأحمل أسماء مختلفة فى مصر، وفى مختلف البلاد».

«وحتى فى المجر حيث كنت أعيش حياة طبيعية، فقد كنت أشعر بالغربة الشديدة، ومع ذلك فلقد استطعت أن أحصل على شهادة جامعية من المعهد العالى للغات الأجنبية من جامعة بودابست، وتعلمت اللغة الروسية وحصلت على دبلوم فى الترجمة منها».

«وبقيت علىّ مهمة أن أحصل على ليسانس الحقوق الذى لم أنه امتحاناتى فيه منذ عام ١٩٤٧».

ويثنى محمد يوسف الجندى ثناءات عطرة على كثير من زملائه الشيوعيين فى سياق حديثه.

ويتحدث محمد يوسف الجندى عن يوسف حلمى وشجاعته حديثا جميلا ينفرد فيه بما لم يذكره غيره من أن يوسف حلمى بعث إلى عبد الناصر ببرقية شجاعة ينتقص فيها من وطنية الزعيم حيث قال له مصر بالنسبة لعبد الناصر نفسه تعتبر جهة أجنبية!! :

«أما يوسف حلمى فقد أصبح بعد ذلك عضوا قياديا فى الحزب الوطنى هو وفتحى رضوان، ثم أصبح سكرتيرا عاما لحركة السلام فى الخمسينيات، وأصدر جريدة «الميدان»، ثم اختلف مع قيادة الثورة سنة ١٩٥٣ حول قضية الحريات وحل الأحزاب، فاعتقل وسجن فترة، وقد حدث فى تلك الفترة أن ألقى عبد الناصر خطابا اتهم فيه المعتقلين الشيوعيين بأنهم يعملون لجهات جنبية، فاستفز يوسف حلمى وبعث له برقية جاء فيها ما معناه أن الجهة الأجنبية التى نعمل لها هى مصر، وهى أجنبية بالنسبة لك، وكان يوسف حلمى يشتعل وطنية ويعارض توجهات الحكم فى ذلك الوقت، سواء فى محاولات التقارب مع أمريكا، أو تقييد الحريات العامة، وقد سافر سرا بعد الإفراج عنه إلى الخارج عدة سنوات، ولم يعد إلى مصر إلا فى عام ١٩٥٦ عندما تغيرت سياسة عبد الناصر، وفى فترة وجود يوسف حلمى فى الخارج التقينا وكانت لنا مغامرات مشتركة».

وفى موضع آخر يتحدث عنه ويقول:

«وكان يوسف حلمى إنسانا مرحا، ويحب أغانى سيد درويش بالذات، وكان يدافع دائما عن تراث سيد درويش وكون جمعية لهذا الغرض فى مصر، وكان رجلا وطنيا وديمقراطيا، اصطدم مع جمال عبد الناصر عندما بدأ المفاضات مع الإنجليز وتقرب من الأمريكان، وعندما حل الأحزاب وألغى الدستور والحياة النيابية، وكان فى منفاه يكتب الرسائل لجمال عبد الناصر ينتقد فيها سياسته، ومنها رسائل تتعلق بالحريات الديمقراطية، وأخرى بالسلام بين مصر وإسرائيل الذى كان يوسف حلمى

وهو السكرتير العام لحركة السلام المصرية يؤمن بضرورة تحقيقه والتفرغ للنضال وتوجيه الطاقات من أجل تحرير البلاد من الاستعمار وتنميتها».

«وقد دعا إلى مؤتمر دولى تشترك فيه مصر والدول العربية، فضلا عن الدول الخمس الكبرى لبحث قضية السلام بين إسرائيل والبلاد العربية، وقد نشرت آراؤه فى بعض الصحف الإسرائيلية».

(٦٨)

وهذا هو ثناؤه على زميله اليهودى المصرى الفرنسى يوسف حزان الذى جاء مصر سائحا من فرنسا لكن قوات المباحث لم تسمح له بالبقاء فى مصر ورحلته فى اليوم نفسه إلى فرنسا:

«. . . كان يتمتع بالجنسية الفرنسية، ولكنه ولد وعاش وتعلم فى مصر، وكان يعتبر نفسه مصريا، وهو يتكلم ويقرأ العربية كأحد أبنائها، وقد طرد من مصر عام ١٩٤٨ فجاء إلى فرنسا وانضم إلى الحزب الشيوعى الفرنسى، إلى أن صدر قرار من مجموعة حدتو بالخارج بالانسحاب من الحزب وتكوين مجموعة خاصة بالحزب المصرى فى الخارج، فاستقال من الحزب لأنه اعتبر نفسه منتميا إلى الشيوعيين المصريين، وهو شديد الحب لمصر والمصريين، ويعانى معاناة كبيرة لأنه لا يستطيع العودة إلى مصر، وقد جاء إلى مصر فى السبعينيات مع مجموعة سياحية، وجاء مرة أخرى بعد ذلك، ولكنه بعد وصوله إلى الفندق جاءت قوات المباحث التى أبلغته بأنه ممنوع من دخول الأراضى المصرية، وجرت مناقشة بينه وبين الضابط الذى أبلغه بذلك، فاعتذر له باحتمال وجود خطأ أو تشابه أسماء، ورحل فى نفس اليوم إلى فرنسا، ومازال يعيش فى فرنسا، ويعتبر محطا للقاء المصريين من مختلف الاتجاهات، الذين يعتبرونه صديقا، وله أصدقاء كثيرون من الفلسطينيين، وقد منحه ياسر عرفات هو وهنرى كورييل وساما لمساعداتهما العديدة للقضية الفلسطينية، وإلى جانب المصريين فهو مازال مستمرا فى مساعدة الشيوعيين السودانيين بكل الوسائل، استمرار للقضية التى كرس كورييل حياته لها».

ومن الطريف أن محمد يوسف الجندى لا يبخل علينا بذكر أواصر المصاهرة التى ربطت عائلته بكثيرين من مشاهير السياسة، وعلى سبيل المثال فإن ابنة عمه تزوجت من ابن عم الرئيس مبارك، وكان ضابطا يدعى عادل مبارك.

وعلى سبيل المثال أيضا فإن عمه الدكتور عبد العزيز تزوج ابنة عطية باشا إسماعيل، ابن خال إسماعيل صدقى عدو الوفد اللدود على حد تعبير محمد يوسف الجندى، لكنه فى (ص ٧٨) يذكر هذه المصاهرة بصيغة أخرى، وهى أن عمه تزوج ابنة منصور باشا إسماعيل، ابن عم إسماعيل صدقى.

. . . . . .

وهكذا تجمعت فى هذه المذكرات كل صور الحياة المصرية التى عاشها قطب من أقطاب اليسار فى عصر لم يرحب بالتحول حتى وإن تظاهر به.

***